علي الشدوي

تقرير إلى يوليوس قيصر

رواية

طوى
للنشر والإعلام

علي الشدوي

تقرير
إلى يوليوس قيصر

رواية

طوى
للنشر والإعلام

Book: Taqreer Ela Julius Caesar
الكتاب: تقرير إلى يوليوس قيصر
Author: ali alshdwe
المؤلف: علي الشدوي
Cover plate: Ahmed Algannam
لوحة الغلاف: أحمد الغنام
First Edition: 2009
الطبعة الأولى ٢٠٠٩
All rights reserved
حقوق الطبع محفوظة ©

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel : 00966505481425 - 009662108111
التوزيع : منشورات الجمل
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٦٦٨١١٨،
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

(١)

لقد مضت عدة أسابيع يا مولاي على ذلك المساء الذي قرأت فيه رواية (موبي ديك) للكاتب الأمريكي (هرمان ملفل). آنذاك وفي الصفحة التاسعة والعشرين (ص: ٢٩) من الترجمة العربية، لفت نظري هذه العبارة التي قالها بطل الرواية (إسماعيل). قال: «كلما كنتُ في مثل تلك الأحوال آن لي أن أركب البحر بأقصى ما أستطيعه من سرعة، فذلك هو ما أوثره إن آثر غيري المسدس والرصاص. في رباطة جأش المتفلسف ألقى (كاتو) نفسه على سيفه».

كما أتذكر الآن، شعرت بـ (كاتو) آخر أثناء القراءة. كائن مخلوق من ذكرياتي، مخلوق من لحظة ماضية فكرتُ فيها أن أنتحر، من رعب تلك اللحظة وفضولها وفتنتها. أصبح (كاتو) حقيقيا وسهل المنال إلى حد لفني فيه شعور بتوسع على شكل ترجيع في الروح، وقد عشت لحظة انتقال (كاتو) إلى العالم الآخر بشعور التوسع ذاك كما لو كنتُ هو.

رَفتْ أفكاره عبر أفكاري. الحَق يا مولاي أننا كنا نحلم الأحلام ذاتها؛ لذلك تحقق انتقالي معه بلطافة كما لو كنتُ أنا هو.

أغمضت عيني مثلما أغمض هو عينيه، ووصلتُ مثلما وصل هو إلى العالم الآخر. وصلنا إلى هناك بعبور لذيذ. هكذا خيل إلي كما لو كنتُ شَهِدتُ انتحاره. هذا إذا لم أكن يا مولاي أحلم؛ فقد عشت مشهد انتحاره بانفعال لا يطاق.

لم تكن هذه أقدم ذكرياتي. هناك ذكرى أخرى تكونت على شكل فكرة مجردة مضمونها؛ أن الخط المستقيم هو في الحقيقة دائرة تعيدنا دوما إلى ما كنا فيه؛ أي أن نموت ونحن نتعمد الموت؛ لأننا نعيش طارئين، وأننا لسنا في بيتنا؛ فبيتنا الحقيقي في السماء، أو في أي مكان آخر.

ماذا يا مولاي لو أراد (كاتو) أن يعرف الموت بكليته وألا يكتفي به ذهنيا؟ أن يعاني كإنسان وبمحدودية إنسان؟ أو من أجل أن يكتشف حياة أخرى جديدة؟ نحن في هذا العالم يا مولاي كامرأة لا تبحث عن خاتمها الذي أضاعته إلا في الأمكنة التي تتحرك فيها يوميا. لا نعرف أن البحث عن الأشياء الضائعة تعوقه رتابة عاداتنا، وروتين الأشياء التي نفعلها.

وأنا أقرأ تمحورت ميولي حول سرد الأحداث، وتشابك المواقف الإنسانية، وبين كل صفحة وصفحة من الرواية وضمن لذتي في القراءة أجد فائضا من الوقت لكي أفكر. وفي كل مرة يعاجلني قلبي بخاطرة من تلك الخواطر التي تراود القلوب لا الأذهان، خاطرة تكشف لي أنني أنا و كاتو ضحيتان لمصير واحد، محنة تقاسمْناها، كحمارين مربوطين في عمود واحد.

إن السيف القاتل لم يضربني بعد، وأسلم السبل هي أن أتجنبه. مهما كان تفوقي الفكري لكوني حيا فقد عجزت عن انتحال

سيادة على (كاتو) الميت؛ من غير أن استعين بحيلة لأتجنب ضربة السيف؛ لذلك فكرت أن كاتو قائد شرير وظالم؛ فآثر الانتحار؛ لكي يستعيد نقاءه الأصلي.

عندما يغادر الإنسان العالم بأي وسيلة كانت؛ كأن يُقتل أو ينتحر أو يموت موتا طبيعيا؛ يغادره يا مولاي لكي يستعيد كونه إنسانا نقيا حتى لو كان قد ارتكب في حياته كل أنواع الفجور والآثام. يطمس الموت مساوئ الميت، وحتى لو تحدث السيئون عن مساوئه؛ فإن الميت لا يعيش ولا يبقى في الذاكرة إلا بما يضفيه عليه البشر الأحياء.

أيكون كاتو تألم مثلما تعتريني آلام لا تُحتمل؟ إن التخلص من الألم يا مولاي يتحقق بأمان أكبر عن طريق الموت. لكن ألا يجب أن نتوقف قبل أن نتصرف؟ بطبيعة الحال قد لا يسعدنا التصرف، ومع ذلك هل نأسف لأننا غادرنا ذلك النعيم الذي كنا نجهل فيه أننا سنموت؟ أيكون كاتو قد فكر في ذلك النعيم تفكير المبصر الذي أصيب بالعمى فحَن إلى الضوء؟

لأنني فيما بعد تهربت من هذه الأسئلة، فقد ابتعدت عن الناس. في الواقع أن ما كان يضايقني هو أنني لم أكن أعرف لم تهربت؟ وفيما أنا أتهرب كان لدي أكثر مما ينبغي من التفكير، وأكثر مما يجب من المعنى. فكرت في أن الحياة يا مولاي نفسها لا تخضع لمنطق، فلِمَ أريد أن أستخلص معناها بمنطق؟ ثم ما المنطق؟ ولأسابيع بعد تلك القراءة صممت على ألا أفكر في حادثة كاتو؛ لأنني اكتشفت أن دائي يأتي من هناك.

في الحقيقة يا مولاي ليس التعبير المناسب والدقيق أن أقول

(ألا أفكر) و مع ذلك يمكن أن تقرأه على إنه تعبير من النوع الصادق من الكذب. في الواقع أن حادثة انتحار كاتو لم تخرج من ذهني قط. لقد شكلت بؤرة فكري؛ وإن بدت في بعض الأحيان أنها خرجت، فإن ذلك لم يكن سوى خمود مؤقت لها؛ لابد أن يفقْني منها قلق لا أستطيع أن أتخلص منه.

(٢)

كنت يا مولاي قد بدأت القراءة، ثم توقفت بسبب أعمال دنيوية لا فائدة منها، لكنها ضرورية وتساهم في كمال أعمالي اليومية. نحن يا مولاي نعيش في الدنيا كما لو كنا في حلم تساهم تفاصيله في كماله. اليوم عدت إلى القراءة، وفتحت على صفحة معلمة لأستسلم ببطء لحبكة الرواية، ورسم شخصية (كويكوج) التي يقال أن (هرمان ملفل) استقاها من (ماربونا) الوثني الذي كان ينتقد الرذائل والحماقات المسيحية في بلاط (تاهيتي).

إن من شأن العقل البشري يا مولاي أن يُرهق أحيانا بأسئلة لا يمكنه ردها؛ لذلك أرهقتني هذه الأسئلة: هل انتحر (كاتو) لأنه كان رابط الجأش؟ أم انتحر لأنه كالفيلسوف يتمتع برباطة الجأش؟ هل هو فيلسوف وأخفى ذلك تحت ستار أنه القائد العسكري؟ ما العلاقة بين رباطة الجأش وبين الفيلسوف؟ هل لذلك علاقة بما نعرفه الآن من رباطة جأش الفيلسوف سقراط، وهو يتجرع السم أمام أصدقائه وتلاميذه ومريديه؟.

إن عدم فهْم ما فعله سقراط، وعدم فهْم ما فعله كاتو مسألتان مختلفتان. ينقص التعاطف حالة سقراط، وفي حالة كاتو ينقص

الفهم. نحن لا نفهم يا مولاي ما الذي دفع كاتو لكي يلقي نفسه على سيفه، ولا الذي دفعه لأن يقرأ كتابا فلسفيا قبل أن ينتحر، لكننا نفهم الإغواء الذي استسلم له سقراط، إغراء أن يسجل مريدوه وتلاميذه لحظاته الأخيرة؛ وقد فعل ذلك أفلاطون فيما يُعتبر الآن تحفة من تحف الأدب التي كُتبت على امتداد التاريخ.

ولما كنت أعرف يا مولاي؛ أو لأقل على حد علمي أن أحدا لم يعثر على كتاب أو حتى دراسة تفسر سبب انتحار كاتو، أو سبب قراءته كتاب «فيدون» الفلسفي لأفلاطون في الليلة التي انتحر فيها، وأن شائعات وحكايات وأساطير لا أساس لها من الصحة تناقلها الناس بما لا يخفى على نباهتكم، ولأنكم انشغلتم شخصيا بمعرفة السبب لكونكم تقتم إلى أن تقبضوا عليه حيا؛ قلت لنفسي: يمكنني أن أعيد بناء ما حدث؟ لذلك شرعت في بناء الحكاية؛ مصمما على أن أكتب تقريرا لأبين ما في ظاهرة حادثته من خطأ وما هو صحيح مخفي فيها.

مولاي. لست متأكدا مما سيكتبه عبدكم الوضيع والمطيع؛ لذلك من المناسب أن يقرأ عظمتكم ويحكم. كل ما في الأمر أنني منذ تلك اللحظة التي قرأت فيها حكاية (كاتو) رغبت في كتابتها، لكنني أجلت؛ منتظرا أن تتكامل الحكاية من تلقاء نفسها، وفيما أنا أفكر كيف أبدأ، تغيرت مجرياتها، وأضيفت إلى أحداثها أحداث جديدة.

وأنا أكتب لم يعتريني شك في أن حكاية كاتو قد اكتست معنى جديدا؛ لذلك يتعين علي أن أقول لعظمتكم: ليس كل حكاية قابلة لأن تكون قصة. من المهم توكيد هذه الفكرة؛ أعني أن تفصل يا

مولاي حكاية كاتو عما سأرويه هنا. بعض الحكايات تُبنى على الأفكار، ولا تبدو معنية بشيء آخر، وقد اعتقدت أن حكاية كاتو تندرج ضمن هذه الفئة من الحكايات.

رغم أن الأمر لا يخلو من قلة الذوق. أن أنظر إلى انتحار كاتو بهذا الشكل، وأن أتأمله من منظور أن أستفيد ماديا وأدبيا، إلا أنني قررت من غير أن أعرف السبب، أن في حكايته شيئا ما ينبغي فهمه، شيئا تحتفظ به الحكاية لنفسها؛ لأنها تختلف عما أعرفه أو سمعت به. فيها يقين ما يَفْتن، ذكرى ملتهبة، ومكان مأساة. والتأثير الذي تتركه فينا مرهونٌ بحقيقةِ مضمونها: ما تعرضه هو حياتنا، وقد توقف العمل بمعناها الذي نعرفه.

من زاوية فنية خالصة، لم أمِل يا مولاي إلى أن أُعنى بتفاصيل الحكاية، أو أن أتمهل باستطرادات عند كل شخصية من الشخصيات التي شاركتْ في الأحداث. وقد يسر لي هذا، أن أرى حكاية كاتو قابلة بشكل أيسر إلى أن تتحول إلى تقرير.

إن كتابة التقرير بالطريقة التي اخترتها، يمنح الحكاية كثافة جمالية لتتحول فكرتها إلى حقيقة تقبل بوقوعها الحياة. وبالعودة إلى الحياة، وجدت أن روابط الحياة الشعرية مرضية لي، وبدت لي ملائمة على نحو مثالي لإمكانية ما سأرويه في هذا التقرير الذي سيأخذ شكل قصة.

أعني بالروابط الشعرية يا مولاي، التوافق والانسجام اللذين فضلتُهما على التنامي الصارم للحبكة. لقد بدت لي الحبكة مفهوما استبداديا، يستند إلى الترتيب القسري لما يحدث بشكل سلس في الحياة، وهو ما لا تميل إليه حكاية كاتو التي جرت في الواقع.

مولاي. إن ما سأكتبه في هذا التقرير حتى لو كان جيدا، سيظل شيئا تقريبيا، لكن وأنا أكتب شعرت بسرعة ويأس، وانتقالات مفاجئة بين الموت وبين الحياة، وفقدان ونقص، وأهم من هذا كله أن حادثة انتحار كاتو أثرت في كمأساة؛ فقد كشفت لي ثغرات في مأساتنا الإنسانية، ثغرات من الكوميديا والسخرية والميلودراما.

(٣)

رحت اليوم يا مولاي أكمل قراءة الرواية. استغرقت في الوهم الذي أدخلني فيه سرد الحكايات، وتشابك الأحداث، وتشابك المواقف البشرية إلى حد أنني شاركت أولئك البحارة الجلوسَ في حانة النفاث؛ لكن هامشا طفا في ذاكرتي أخرجني من تلك الحانة التي لم أكن أرغب في أن أخرج منها. إنها لظاهرة تحدث أحيانا أن يستيقظ في أذهاننا شيء كنا قد نسيناه.

يتعلق الهامش بكاتو. اسمه الحقيقي ماركوس بوركيس كاتو (٩٥ -٤٦ ق. م) حفيد كاتو الرقيب؛ انتحر بعد مقتل بومبي. من نافل القول أن أقول: إنه انتحر لئلا يقع أسيرا في قبضة عظمتكم، وقيل أنه قضى آخر ليلة من حياته وهو يقرأ كتاب «الفيدون» لأفلاطون.

أورد هذه المعلومة مترجم الرواية في هامش الصفحة ذاتها. ما الذي يوجد في كتاب أفلاطون لكي يقرأه كاتو قبل أن ينتحر؟ ما العلاقة بين كتاب في الفلسفة وبين الانتحار؟ كإجابة مؤقتة كتبت أسفل الصفحة التاسعة والعشرين (٢٩) من الرواية: نحن نعرف موقف سقراط من الانتحار. فهو يقول عن الانتحار إنه جريمة في

حق الآلهة؛ لأننا نحن البشر من ممتلكاتها، والآلهة ليست أقل من البشر في رغبتها في عدم تحطيم ممتلكاتها، ومن باب أولى أن تحطم أنفسها.

كتبت هذا ثم أغلقت الرواية، لكن فكرة طفت في ذهني.

قالت لي الفكرة:

-من غير الممكن أن يكون الفيلسوف (سقراط) قد قال هذا. فمن عادته ألا يحل القضايا بالعودة إلى الآلهة، ولا إلى الدين.

قلت لها:

-لا بأس ربما أضافها تلميذه الفيلسوف أفلاطون ليبرر موقف أستاذه سقراط، وليزيل من أنفسنا نحن قراء كتابه «فيدون» أي شبهه تتعلق بفكرة تحطيم معلمه سقراط لذاته؛ عندما قبل أن يُعدم وهو رابط الجأش.

ربما لأن هذه الأفكار قد استولت علي؛ فقد حلمت يا مولاي في تلك الليلة بأنني في مقبرة. فيما أنا أدور بين القبور ألفيت نفسي مأخوذا بالاقتراب من كومة من القبور.

كيف فطنت يا مولاي إلى حقيقة أن هناك من يراقبني؟!

قال لي

- الإيمان كالثعالب يعيش بين القبور.

قلت

- هذه حكمة (إسماعيل)؛ كأنك قرأت رواية (موبي ديك).

قال

- لا يهم الآن. ما الذي تبحث عنه؟

قلت

- أبحث عن مقابر عائلة كاتو.

قال

- هناك. وأشار إلى ظل شجرة سدر ضخمة.

قلت:

- أذكر أن ابنا للعائلة اسمه ماركوس مدفون هنا.

أطرق لحظة ثم أجابني:

- أترى القبر الذي هناك؟.

وأشار إلى قبر كان قد لفت انتباهي.

إن الوجه الإنساني لا يكذب أبدا. إنه يا مولاي الخارطة التي تحفظ أراضي عقولنا، وقد تكشفت لي بنية عقل ذلك الشيخ في ملامح وجهه. من يرَهُ يرَ كائنا خارقا، موهوبا وعبقريا، جذابا ومترفعا في آن، أنيقا ومتسقا جسديا، ترتسم على ملامحه هدوء وثقة، وتشع منه هاله تفيض عن مفاهيمي العادية، وتكرهني على البلاغة التي لا يتحملها هذا التقرير.

يبدو أصغر مما هو عليه كما لو أُزيحت منه الأفكار المتعلقة بالفناء، واختفت الألفاظ الدالة على العدم، لتبقى في جهاز نطقه الكلمات الدالة على الوجود، وكُنست من ذهنه الأفكار التي تصف الموت، وبقيت تلك التي تصف الخلود؛ وبذلك أصبح غير مراقب، ويكاد يكون غير موجود، يعيش من غير أن تدل عليه كلمة أو فكرة، ومن غير أن يكون حيا لكي يموت، منبثقا من خلال فوضى وتشوش اللغة، والأفكار الدالة على الموت، وسالما من غير أي أذى. شيخ جليل ومهيب إذا ما تكلم لا تستطع أن تميز إن كان ما تسمعه صوته أم شيئا آخر يصدر من قلبه، شيئا يستطيع يا

مولاي أن يزرع فيك البهجة التي لا توجد في كلمات، إنما تفتح نفسك بدونها.

لا أريد يا مولاي أن أسترسل في سرد صفاته؛ لأن كثرة الصفات تمحو الملامح. فقط أريد أن أقول لعظمتكم: عندما تحدث معي، تولد لدي انطباع أنه يقضي حياته من أجل هدف واحد هو: أن ينتظر اليوم الذي يقابلني فيه.

(٤)

حينما وصلنا يا مولاي، أراني ما هو مكتوب على شاهد القبر. قرأت (ماركوس بوركيس كاتو) حفيد الرقيب (كاتو) ولد عام (٩٥ ق. م) وانتحر عام (٤٦ ق.م) وله من العمر (٤٩) عاما. وعلى الجانب الآخر قرأت: انتحر كيلا يكون أسيرا عند (يوليوس قيصر).

من أعلى التل الذي يحوي المقبرة كنت أرقب مدينة أسفل قدمي. كان تقديري غريبا للمسافة التي تفصلني عنها؛ لابد أن تكون معي يا مولاي لكي تصدق؛ إذ اعتقدت أنني يمكن أن أطأ المدينة فيما لو مددت رجلي، وأن ألمسها بيدي فيما لو انحنيت.

إن المرء غالبا ما يتعب يا مولاي لكونه لم يفعل الشيء؛ وما يريحه هو أن يفعل. ولأن ما يريحني آنذاك هو أن أفعل؛ فقد مددت رجلي لأهوي في فراغ طويل؛ ولأستيقظ وأنا في فراشي، الكائن الضعيف، الوضيع والمطيع، الذي يكتب هذا التقرير لكي يُقدم إلى سيادتكم.

أغمضت عيني. نحن البشر يا مولاي لا نحس بهويتنا إلا وعيوننا مغمضة. كأنما الظلمة هي التي يتكون منها جوهرنا، بالرغم من أن النور هو الأكثر انسجاما مع طبيعة البشر الطينية.

ظللت أفكر في تلك المدينة: الصروح والمباني العالية. الحجارة التي احتوتها والموضوعة والمسواة في أمكنتها من البناء. الأحجار الضخمة بحيث يحار المرء في تصور الكيفية التي مكنت ساكنيها من بناء تلك المباني الكبيرة والضخمة بذلك الإتقان. الملاءمة بين المادة التي بنيت منها البيوت وبين الرسومات وبين الزخارف؛ لتبدو طرافة البناء لأول وهلة غريبة عن عقلي.

عدت إلى النوم ليكتمل الحلم، إنه لشيء غريب يا مولاي أن ينتج عن هذا السبب مثل هذه النتيجة!! أمام قبره جثا الشيخ الجليل وسجد إجلالا لـ (كاتو)، وتعظيما لعظمته. ثم تلمس شاهد قبره المنصوب، ممررا أصابعه في فجوات ما هو مكتوب عليه.

أما أنا فقد همت على وجهي فوق تلك المدينة؛ استيقظت كالأبله مأخوذا بما جرى، وبسؤال هو: كيف لحلم أن ينقطع بعد أن نكون قد استيقظنا ليعود مرة أخرى ليكمل أحداثه، في الحقيقة لو تخيلت هذا يا مولاي فلن تصدقني، فما بالك لو قلت إنه حدث فعلا.

تصور يا مولاي؛ مدينة تظهر في أحلامك، ثم تعود إلى الظهور بعد أن تكون قد استيقظتَ وعدتَ إلى النوم، يسألني الشيخ الجليل إن كنت أعرف مكان وجودها. ها هي الآن أمام عيني. خشيت بما يمكن أن يقوله شاعر كهوميروس حين يتبادل فيما قاله الوهمُ والحقيقةُ الأمكنةَ. مدينة تحدت قدرته على الاختلاق. هناك علامات على أن هذه المدينة قد خلق فيها شاعرٌ ما الحياةَ لتكون وسيلته إلى الخلود، وأنا خادمكم المخلص تحملت على عاتقي هذه المهمة.

لقد خيل إلي يا مولاي أن تلك المدينة تشبه مدينة (ماكندو). المدينة التي كانت معزولة مائة سنة، والتي شاء الله أن يمتحن فيها قدرة البشر على الدهشة والاستغراب، فجعلهم في حال صاعدة وهابطة: بين فرح وترح، يقين وشك، كشف ووهم، حتى لم يكونوا يدرون ما قدر العلم الحقيقي فيما يرون، ولا أين يبدأ الواقع أو ينتهي؛ فقد التقت الحقائق بالأوهام.

إنها مدينة الفلاسفة أو هكذا تخيلت. أليس سكانها بشرا يندهشون؟!. الدهشة يا مولاي ولدت الفلسفة. إنها أم الفلسفة وأبوها. اعتقد أفلاطون على لسان سقراط أن الفلسفة نشأت من الدهشة. قال للشاب (تياتينوس): من خاصية الفيلسوف، وإلى أعلى درجة، هذه الحالة: الاندهاش. وليس للفلسفة أصل غير هذا. هل تتذكر يا مولاي ذلك الشاب (ثياتيوس) الذي قال عنه (ثيودورس) إن أنفه الأفطس، وعينيه البارزتين يشبهان أنف وعيني سقراط؟.

ما لا يجب أن ننساه يا مولاي أن الفلسفة لا تنشأ بين قوم تعساء. إنها تنشأ بين قوم سعداء. أحد ما على ما أتذكر قال: عرف الإغريق «أن يبدؤوا في الوقت المناسب، وهذا الدرس يحدد اللحظة التي يجب أن نبدأ فيها بالتفلسف، فقد ادخروه بشكل أوضح مما ادخره أي شعب آخر. ليس المفروض أن نبدأ حين نكون تعساء، كما يتصور أؤلئك الذين يردون الفلسفة إلى الاستياء، بل بالعكس، يجب أن نتفلسف حين نكون سعداء. . . .».

(٥)

حينما أفكر الآن في ذلك الحلم، تكون دائما تلك المدينة يا مولاي أول شيء أتذكره، إلى درجة أن هذا الفصل الذي أنا بصدد كتابته إن أعطى أي معنى، فإنني أعتقد أن مصدر ذلك هو تلك المدينة التي رأيتها وأربكتني؛ لأنها لا تندرج في أي خبرة من خبراتي. لقد تكون لدي انطباع بأنني لو ركزت فيها أكثر فإنها ستبدأ في الظهور في عالمنا الواقعي.

أحيانا أفكر يا مولاي أن تلك المدينة الموجودة (هناك) لم تكن (هناك). وأن (هناك) التي يُشار بها إلى المكان البعيد ليست إشارة جديرة بالتصديق. مكان زائف لاسم إشارة زائف. ربما وُجدت المدينة في رأسي، و كنت أنا موجودا فيه. في كلا المكانين، وفي الوقت ذاته: في رأسي وفي الحلم. في الحلم الذي أكتبه الآن لعظمتكم ما زلت موجودا في تلك الفكرة الأكبر من رغباتي وواجباتي، حتى أنني أشعر بأن ليس لدي خيار من الانصياع لها. إن كل فكرة تتضمن حقيقة ما. لكننا نحمد الله أن ما من فكرة واحدة تتضمن الحقيقة كاملة.

كم كنت أتمنى يا مولاي أن أغير طبيعتي البشرية. أن أكون

فكرة مجردة لأتمكن من أن أدخل رؤوس الأحياء؛ أدخل عندما أريد أنا لا عندما يريدون هم؛ لكي أتبين تلك الحقيقة المزورة، تلك التي تدعي أن الفاعل «أنا» ضروري للفعل «أفكر» ومنهم كاتو قبل أن ينتحر. لا بد أنه قال لنفسه (أنا سأنتحر) أو أن أكون نسخة كتاب «فيدون» التي قرأها لربما أعرف المزيد؛ عندها فقط يمكنني أن أصل إلى ما كان يفكر فيه كاتو قبل انتحاره.

أفضل يا مولاي ألا أقص تفاصيل ما فعلت في صباح هذا اليوم؛ لأن ذلك ليس له علاقة مباشرة بما أكتبه الآن. كل ما في الأمر أنني وفيما أنا أبحث عمن يفك لي لغز (كاتو) وقع بين يدي بحث صغير أعانني كمدخل إلى معرفة ما كان يفكر فيه كاتو في الليلة التي قرر فيها أن ينتحر هربا من مواجهتك التي لا تطاق؛ حيث لا قيصر إلا قيصر.

يقع البحث في اثنتين وعشرين (٢٢) صفحة من القطع الصغير. هناك ستة هوامش كلها تحيل إلى كتاب (فيدون) الفلسفي لـ (أفلاطون).

الشيخ الجليل الذي أعطاني البحث قال

- إنه صدر احتفاء بالذكرى الأولى لإعدام سقراط. وإن كان المؤلف مجهولا، إلا أنه فيما يبدو من أتباع أفلاطون أو من تلاميذه. يقال أنه (أبوللودوروس)، أحد أتباع سقراط المتعلقين به أشد التعلق.

وأضاف

- لا أشك في أنك سمعت عن هذا الرجل، وسمعت عن أحواله.

يبدأ البحث يا مولاي بأشهر أقوال سقراط وأكثرها اقتباسا فيما بعد عن طبيعة الفلسفة: «إن أولئك الذين يوجهون أنفسهم في الطريق الصحيح إلى الفلسفة يعدون بذلك مباشرة وبمحض إرادتهم، يعدون أنفسهم؛ لأن يموتوا وللموت. وإذا كان هذا صحيحا فهم إذن في الواقع يتطلعون للموت طوال حياتهم، ومن غير المعقول إذن أن يضطربوا عندما يقدم الشيء الذي كانوا لأمد طويل يعدون أنفسهم له ويتوقعونه».

الكلمة الأساسية في هذا القول الأشهر والأكثر تداولا يا مولاي من أقوال سقراط عن طبيعة الفلسفة هي كلمة (أعد) ومشتقاتها (يعد، إعداد. . . إلخ). والكلمة الإغريقية كما يعرف عظمتكم (للأسف لم يوردها مترجم البحث) تتضمن الإعداد والتدريب لأي رياضة بدنية تحتاج مرانا مكثفا، أو فنا يحتاج تدريبا كالمسرح. والفكرة يا مولاي أن الإعداد والتدريب لن يجعل من آخر حدث كالموت تجربة مخيفة. وكما لا يخفى على عظمتكم فإن سقراط يشير إلى أن الانشغال بالفلسفة تُعد الإنسانَ لأن يقابل الموت في أي لحظة.

ولأنكم عودتمونا على الدقة في كتابة التقارير، كان لا بد لي من أن أعود إلى محاورة (فيدون) كي أتأكد من صحة ما أورده المؤلف. وكم كانت فرحتي يا مولاي عارمة!! فرحة تصحبها إضاءة يصحب هذه الفرحة إحساس باليقين.

هذه النوعية من المعرفة المباغتة معرفة رائعة ومدهشة، ؛ لقد نُقل إلينا: أن من اكتشف البنية الدائرية للبنزين (كيكوليه) رأى في المنام أن أفعى تعض على ذيلها. إنها معرفة من النوعية الثالثة كما

يطلق عليها الفيلسوف (سبينوزا). بيد أنها قد تكون يا مولاي معرفة مضللة. لذلك يؤسفني أنني سأضع مثل هذه المعرفة ضمن الجوانب الإنسانية للعلم.

لهذا السبب شرعت أقرأ قول سقراط: «والواقع، يا سيمياس، أن المشتغلين بالفلسفة يتدربون على الموت، وهم أقل خوفا من حضور الموت». ولأن سقراط؛ لا يمكن أن يتجاوز فكرة مشوشة كهذه من غير أن بشرحها فقد تابع: «إذ هم (أي الفلاسفة) في نزاع كامل مع الجسد (أجسادهم)، ويرغبون أن تكون الروح (أرواحهم) وحدها قائمة بذاتها، هذا على حين أنهم يصابون بالذعر ويثورون عندما يحدث هذا (أي الموت).

سأل سقراط

- ألن يكون تناقضا صارخا من جانبهم؟».

أجاب سيمياس

- هو كذلك.

(٦)

هل انتسجت يا مولاي خيوط كثيرة فيما تحدثت عنه إلى الآن؟ وإذا ما انتسجت خيوط متعددة فأي خيط أمسك في هذا الفصل من التقرير؟ سأتمسك بقول سقراط: «إن المشتغلين بالفلسفة يتدربون على الموت». خيط هو: أن كاتو كان يقرأ كتاب فيدون الفلسفي؛ لكي يدرب نفسه على الموت. شجاعة كاتو هنا شجاعة حقيقية، لأنه سيطهر روحه من ارتباطها بجسده، شجاعة فيلسوف حقيقي يريد أن يخلص روحَه من جسده.

إن الروح طاهرة؛ والطاهر يا مولاي لا يلمسه غير طاهر مثله. هذا ما قاله أفلاطون أثناء الحوار على لسان سقراط. والفيلسوف الحقيقي مثلما هو سقراط الذي تجرع السم برباطة جأش، هو الفيلسوف الذي كان قدوة كاتو؛ لذلك سيكون كاتو فيلسوفا حقيقيا مثله مثل سقراط؛ يلقي نفسه على سيفه برباطة جأش. كلاهما (سقراط و كاتو) أرادا أن يتخلصا من جسديهما، وأن يطهرا روحيهما من متعلقات جسديهما. لقد تصرفا بشجاعة لا تشبه شجاعة العامة الذين ليسوا شجعانا إلا لأنهم يخافون مِنْ شر مَنْ هو أعظم، وأكثر شرا.

لم يكن كاتو يريد أن يقول عنه الناس: إنه انتحر من شر أعظم هو أن يأسره يوليوس قيصر، أو أن يقولوا عنه: إنه فيلسوف مزيف، لأنه يخاف الموت، بل أن يقولوا: إنه انتحر؛ لأنه فيلسوف حقيقي لا يخاف الموت؛ لأن حياته كلها تدريب على اللحظة التي يرمي بها جسده على سيفه.

لم يكن يريد لروحه أن يتحكم فيها جسده. تمنعنا الفلسفة يا مولاي من أن نخضع التفكير للشهوة أو اللذة. لماذا؟ لأن الإنسان حينما يضاجع يمتنع عن التفكير. لو نظرنا يا مولاي إلى المتضاجعين، الى الطريقة التي يتضاجعان بها، لرأينا أن كل منهما يحاول أن يبلغ لذة الآخر القصوى. التفكير غير موجود بالنسبة لهما، ولا بالنسبة للروح؛ إذ لا يوجد إلا جسداهما.

يا لروعة الفلسفة يا مولاي!! أنها شيئا لا يمكن أن نتعلمه. إنما يمكن أن نتعلم التفكير بطريقة فلسفية. هكذا فكر كاتو تفكيرا فلسفيا؛ ليكتشف أنه لم يعد يخاف من الموت. تلاشى الخوف من روحه، الخوف الذي كان ينغص حياته منذ ناصبك العداء.

أكتشف كاتو يا مولاي كم هي سهلة عادات الموت وتقاليده، ومن لحظتها لم يعد يهمه أمر موته، فما يهمه هو ألا يصبح أسيرا في قبضتكم. عندما شعر أنه سيقع في أسر إمبراطور عظيم ومهيب، لم يشعر بأي خوف، بل غزاه حنين في أن يقرأ كتابا في الفلسفة؛ ليرضى نفسيا بموته؛ الرضا الذي كان يطمح إليه وينتظر به الموت كما لو كان فيلسوفا.

بعد أن شرع يقرأ كتاب «فيدون» الفلسفي لأفلاطون سمع ذلك النداء الحقيقي الذي يسمعه الفلاسفة الحقيقيون، الذين يشعرون

بالسعادة الحقيقية بالموت كما شعر الفيلسوف سقراط. هذه أول مرة تخطر ببال كاتو قصيدة مثلما خطرت على بال سقراط. لم يكن مثل سقراط غير واثق من جودتها. بالعكس كان واثقا من جودتها إلى حد أنه امتلأ بالسعادة.

حينما كان يقرأ فهم أن هناك ما هو أبعد من السعادة، وأن تجربته في الحياة لم تساعده على أن يحس بما يشبه إحساسه وهو يقرأ. بينما كان يقرأ نسي ما كان يحتفظ به في عقله من خيالات تخص جسده، واكتشف في روحه موسيقى يختزنها من قبل من غير أن يعرف، وبينما هو يقرأ صفحة تلو صفحة، كانت الموسيقى تأتيه عنوة أراد أم لم يرد.

قال لمن هم قريبون منه

- إنا مستعجل.

لم يفهموا إلا فيما بعد، لأنها الجملة الأخيرة التي سمعوها منه.

(٧)

مقارنة مع كتاب «فيدون» يضع البحث الذي حدثتك عنه قبل قليل كلمة (البدن) محل كلمة (الجسد)، و يضع كلمة (الروح) محل كلمة (النفس). وفي تقريري هذا سآخذ من هذا وذاك أي سأستعمل كلمتي (الروح، والجسد)؛ لأقول إن البحث يتابع بهذه العبارات: «يرى سقراط أن الحياة الفلسفية تتشكل وتأخذ طابعها مما يؤمن به سقراط من تفرقة صارمة بين الروح وبين الجسد. فالروح والجسد يتكونان من جواهر مختلفة لا يمتزج أحدهما بالآخر.

أن يفرق سقراط تفريقا صارما بين الروح والجسد، فذلك ما هو معروف ولن يثير ذكره لديكم سوى الملل؛ لأنني متأكد أنكم قرأتموه، وسمعتموه آلاف المرات بكل التأويلات الممكنة. كما أني متأكد أن هذا التفريق ينتهي كالعادة بأن يكون فَهْم عامة الناس ناقصا وغير صحيح لعلاقة الروح بالجسد. فالعامة لا يدركون أن الجسد لا يمكن أن يؤثر في الروح. وقد كان سقراط يرى أن من الممكن أن تؤثر الروح في الجسد، وقطعا لا يمكن العكس.

أتذكر يا مولاي أنك شبهتني ذات مرة بالطفل النهم الذي عيناه

أكبر من معدته. يا لروعة هذا التشبيه!! فقد طفا في ذهني في اللحظة المناسبة التي أحتاجه فيها؛ ذلك أن سقراط يعتبر أن أثمن المكاسب للعامة الذين يخلطون بين الروح والجسد هو ما يرضي أجسادهم كالطعام والشراب والمتع البدنية والجنسية. إن معدهم أكبر وأوسع من أي شيء آخر في حياتهم؛ لذلك فهم يتخوفون من الموت؛ لأنه سيحرمهم من كل تلك المتع الجسدية.

من غير أن أعي ماذا أفعل، بدأت أسير خلف فكرة انفصال الروح عن الجسد، لكن ما إن وعيت ما أنا سائر خلفه حتى اكتشفت ما يساعدني على أن أتقدم خطوة قصيرة في حل لغز قراءة كاتو. لقد انتبهت إلى تفصيل صغير هرب من انتباهي البارحة وأنا أقرأ «فيدون».

يقول سقراط: «طالما أن الجسد معنا، وأن روحنا ستظل مختلطة بهذا السوء (سوء الجسد)، فلن نحوز أبدا، وكما يجب، ما نهفو إليه، ونحن نقول إن ما نهفو ا إليه هو الحقيقة. ذلك أن الجسم (الجسد) يضع أمامنا عائقا بسبب الحاجة التي فرضت علينا أن نطعمه وأن نرعاه، وإلى جانب هذا فقد تصيبنا الأمراض وتمنعنا من متابعة صيدنا الحقيقي».

أي صيد حقيقي يقصده سقراط؟ أظن أنها «الحقيقة». أقول «أظن» على أمل أن أعدلها في فصول قادمة إلى كلمة أخرى، ربما تكون الكلمة البديلة: (أعتقد) أو (أتصور) أو (أرى). إن الكلمات يا مولاي عدو الحقيقة. واللغة خلقناها نحن؛ لنخفي بها أفكارنا.

تولد اللغة الشك. أول هذه الشكوك أن اللغة لا تقول فعلا ما تقول. من المحتمل يا مولاي ألا يكون المعنى الذي نفهمه، والذي

يفهم مباشرة سوى معنى ناقص يحمى، يختزن أو يؤدي؛ بالرغم من كل شيء إلى معنى آخر. وهنا قد يكون هذا المعنى الآخر هو المعنى الأقوى.

تنداح ذاكرتي الآن نحو حكاية قد تكون رمزا لما قلته عن الكلمات والحقيقة. جرت أحداث الحكاية في قريتي. «مر شاب من جوار بيت، فرأى فتاة أعجبته، فحرك شفتيه بما يدل على التقبيل، فأخبرت أهلها بما حصل من ذلك الشاب، فاجتمع كبار قريتهما، وبعد مداولة الرأي اتفق الجميع على أن يُرمى ظل هذا الشاب جزاء فعلته». هكذا هي الحقيقة يا مولاي في علاقتها؛ ترفض أن تكون هي الكلمة، لأنها لا تطيق انعكاسها.

هذه الحكاية يا مولاي تجعلني أتساءل: أيكون كاتو انتحر لكي يحاكي سقراط؟! إن فعل ذلك فسيكون كالأعور الذي يخلو عالمه من العمق، والذي تبدو له الأشياء مسطحة؛ حينئذ يسقط سقوطا قاتلا لا رجعة فيه. إن الحياة يا مولاي تتقدم من غير أي دليل، وما من قوة تستطيع أن توقفها أو تجعلها تعود إلى الخلف.

(٨)

الأفكار التي لازمتني منذ صباح هذا اليوم، لم تتركني لحظة واحدة. يا لقلق الأفكار!! ويا لروعة قلقها!! إن ما يرعبني أن كل معرفة معرضة للخطأ والوهم. إن أكبر خطأ قد ارتكبُه وأنا أبحث عن سبب انتحار ماركوس بوركيس كاتو وهو يقرأ كتاب «فيدون» أن أقلل من مشكل الخطأ، وأن أكبر وهْم قد أسقط فيه هو أن أقلل من مشكل الوهم. فليعذرْني عظمة القيصر. من الصعب أن أكشف عن الخطأ والوهم؛ لأنهما لا يتقدمان إلى المعرفة بوصفهما كذلك.

أن ينتحر كاتو يا مولاي يعني أن يسمح لروحه أن تنفصل عن جسده، وحينما تنفصل روحه فذلك يعني أن يتفرغ للمعرفة الخالصة التي لا يشوبها أي شائبة مما يتعلق بأمور الجسد. موته أي انفصال روحه عن جسده هو الوسيلة التي ستقربه من هدفه أي المعرفة الخالصة. هناك في المكان الذي ستذهب إليه روحه، سيكون على اتصال بالأشياء الخالصة أي بالحقائق في ذاتها.

الفيلسوف المزيف يا مولاي هو الذي يهتم بملذات الجسد، أما الفيلسوف الحقيقي فلا يهتم بذلك. إنه يهتم بالمعرفة؛ لأن الجسد عائق يحول دون تحصيلها. يحدث هذا ليس بسبب آلام

الجسد وملذاته التي تشغل الروح عن تحصيل المعرفة فحسب، إنما أيضا بسبب نقص أعضائه كالأذنين والعينين واللسان والجلد والأنف كأدوات لتحصيل المعرفة.

أن نتجنب أجسادنا يعني أن نتجنب الاعتماد على عالمنا الطبيعي، على ما يحيط بنا. هذا العالم يا مولاي يتغير؛ لذلك هو دائما ناقص وغير مكتمل. عالم الجسد وعالم الطبيعة هما عالما الجمال الخارجي: عالما الزينة واللذة والحواس. الفيلسوف الحقيقي لا يهتم بجمال خارجي زائل، إنه مشغول عنه، لا يهتم إلا بأمور الروح، والأمور التي تهتم بها الروح هي أمور المعرفة.

وأنا أتعرض للمعرفة، وإذا كان علي أن أحدد أعظم مفكر، لقلت بلا تردد إنه سقراط. أستطيع أن أصفه لك يا مولاي وأنا أشاهد تمثاله النصفي الذي وصل إلينا: الرأس الأصلع، والوجه الكبير المستدير، والعينان العميقتان، والأنف الضخم العريض. واللطافة الإنسانية والدماثة والبساطة. إن من الطرافة (وأنا أورد هذه الطرفة لترطيب هذا التقرير الجاف) أن يقول عن رأسه أحد المؤرخين بأنه أقرب إلى رأس عتال منه إلى رأس أعظم الفلاسفة وأشهرهم.

إن سقراط يا مولاي سعى طوال حياته لكي يؤسس المعرفة على العقل. فكرة تبدو بسيطة لعقلكم الجبار. فكرة أن تكون المعرفة معرفة من خلال المفاهيم. ولكي أوضح هذه الفكرة بصورة تقريبية. ليس لك؛ إنما لمستشاريك اللذين سيقرؤون هذا التقرير، أقول: إن مولاي واع لـ«سيفه». هذا الوعي يُسمى إدراكا حسيا؛ فأنت تراه، وتلمسه، وتحسه، ثم إن بإمكان عظمتكم أن تغلق

عينيك؛ لتكون صورة ذهنية لسيفك. هذه الصورة الذهنية تُسمى تخييلا أو تمثيلا.

غير أن بجانب إدراكك الحسي، وصورتك الذهنية المفردة أفكارا أخرى تُسمى أفكارا عامة. فإذا قلتُ: «سيف العظيم يوليوس قيصر» فإنني أفكر في سيف عظمتكم وحده، لكن إذا قلت «سيف» فإني لا أفكر في أي سيف بصيغة المفرد، بل أفكر فيه بصيغة الجمع أي في فئة هي «السيوف». مثل هذه الأفكار العامة عن السيوف يا مولاي تُسمى مفهوما.

ربما تظن أنني أفسد حكاية كاتو بحديثي عن المعرفة. لا يا مولاي؛ ففكرة انفصال الجسد والروح وشيوعها قد تفسد على المتأمل رهافة سقراط واستدعائه وإثارته لفكرة الانفصال. لا بأس في أن أعود بك إلى البحث الذي قلت لك عنه؛ فهو يتحدث عن خصائص الروح كما يراها سقراط: الاستقلال أو الحرية، والوضوح أو اكتمال الرؤية والاستبصار، ثم الارتفاع عن الزمن، وهي كما سنعرف في مكان ما من هذا التقرير أن لها علاقة بالخلود الذي طمع فيه كاتو. يا لجفاف الفلسفة يا مولاي!! إنها تدرب على الذكاء، لكنها تجفف الروح.

الحواس في «فيدون» غير مرضي عنها. على لسان سقراط يقول أفلاطون: ليس هناك دقة فيما نسمع أو نرى. إذا كانت العينان والأذنان تفتقدان إلى الدقة، فما أبعد أعضاء الحس الأخرى كالذوق، واللمس، والشم عن الدقة واليقين. معنى هذا يا مولاي أن المعرفة ليست مرآة للأشياء ولا مرآة للعالم الخارجي. صحيح أننا ندرك، لكن في الوقت ذاته فأن ندرك يعني أن نترجم وأن نعيد

البناء من مثيرات وإشارات تلتقطها حواسنا وتقوم بتشفيرها.

ما علاقة هذا بما نعرفه عن الروح والجسد؟ ما علاقته بالمعرفة؟. إذا كانت الحواس تنتمي إلى الجسد، وإذا كانت هذه الحواس يمكن أن تضللنا، فكما تساءل أحد الفلاسفة: كيف نثق أن من خدعنا مرة لن يخدعنا مرة ثانية؟. ما الحل إذن؟ إذا ما كان علينا أن نعرف معرفة خالصة فإن علينا أن نبتعد عن الجسد.

هنا يا مولاي طرافة الدليل الذي مفاده أن الفيلسوف يتشوق للموت؛ فالذي لا يجد لذة في متع الجسد كما هو الفيلسوف الحقيقي، حياته لا تستحق أن تعاش، لا أبالغ إذا قلت: إن كل من لا يلقي بالا إلى الملذات القادمة من الجسد فهو قريب جدا من الموت.

يُهيأ لي يا مولاي أن كاتو قبل أن يقرأ «فيدون» كان فيلسوفا مزيفا. أي انه كان يدير بالا لملذات الجسد، ولأنه كذلك سيحرص على الحياة لا على الموت. كان عليه لكي يكون رابط الجأش أمام الموت، وألا يفكر في الحياة، أن يتحول إلى فيلسوف حقيقي، أن يعرف؛ لأن المعرفة من لوازم الروح. روحه لن تتخلص من جسده إلا بأن يلقي نفسه على سيفه. إن ما ستهتم به روحه بعد أن يفعل ستكون أمور المعرفة. الروح بعد أن تبتعد عن الجسد مركز العقل، ومركز التعقل، وما تهدف إليه هو المعرفة. إن الروح عاقلة أولا وأخيرا يا مولاي.

(٩)

يبدو يا مولاي أن الفكر البشري بدأ بأن يقال بدلا من أن يُبنى، والحقيقة يبدو أنها كانت تدرك مباشرة، ولا تتطلب أي تحليل أو تأويل؛ لكي تفرض ذاتها أو لكي تكون مقبولة. هناك زمان ومكان محددان بدأ فيهما البشر يفحصون آليات تفكيرهم، كي يكونوا قادرين على التعقل.

كما يعرف عظمتكم بدأت الفلسفة اليونانية بفكرة تبدو غريبة وفجة وغير متطورة. للأسف لم يُعثر على أي كتاب لأبي الفلسفة (طاليس) حتى في زمن سقراط وأفلاطون و أرسطو، ويسود الاعتقاد الآن بأنه لم يكتب شيئا. تتألف فلسفته، إذا جاز لي أن أسميها فلسفة، بقدر ما أعرف من قضيتين: الأولى: أن أصل الأشياء كلها هو الماء، ليس هذا فحسب، بل كل شيء عنده يعود إلى الماء. الثانية: أن الأرض قرص مسطح مستو يطفو على الماء.

لما كان هذا يا مولاي هو لب وجوهر تعاليم طاليس؛ فإنك قد تتساءل؛ لا لأنك لا تعرف؛ إنما من باب تعليم الآخرين عن السبب الذي يدعو إلى ضرورة منحه لقب أبي الفلسفة على أساس هذه الفكرة الفجة وغير المتطورة. لماذا يجب أن يقال إن الفلسفة بدأت بهذه الفكرة تحديدا؟.

قال لي الشيخ الجليل

- إن دلالة طاليس ليست في أن لمائه الفلسفي أي قيمة في ذاته، بل في أنها أول محاولة تُسجل لشرح الكون على مبادئ طبيعية وعلمية دون مساعدة من الأساطير والحكايات والآلهة. عرض طاليس المشكلة، وحدد اتجاه وطابع كل الفلسفة السابقة على سقراط.

ربما لأن طاليس يا مولاي عرف أرض مصر التي تلقب بأم الدنيا؛ فشاهد هناك ترسبات نهر النيل التي جعلت من الدلتا أكثر خصوبة. أحد شارحي فلسفة طاليس قال: ربما لا حظ أن الضفادع وديدان الأرض تخرج إلى الحياة بعد أن تهطل الأمطار. رأى تلك التربة السوداء أساس الأشياء والكائنات؛ من الزهرة إلى حقول الحنطة مرورا بالحشرات الضارة والنافعة.

كيف يمكنني أن أشرح الفن القابع حول هذه الفكرة الفلسفية التي تبدو ساذجة؟. ذات ليلة قال الشيخ الجليل

- الفيلسوف تأملي كالرسام، شغوف مثل رجل الدين، ومترصد للنهايات وللسببيات مثل رجل العلم، وفي حين يشعر بأنه يمتد على امتداد الكون، فإنه يحتفظ بحضور البديهة اللازم لكي يعتبر نفسه، وبدم بارد، انعكاسا للكون.

يتمتع الفيلسوف يا مولاي بحضور بديهة رجل المسرح حين يتجسد في أجساد أخرى، ويتكلم بأصواتها، مع ذلك يعرف أن يظهر هذا التحول ويعبر عنه شعريا. البيت الشعري هنا بالنسبة للشاعر يا مولاي هو كالفكر الجدلي بالنسبة للفيلسوف. فهو يتناوله لكي يثبت اندهاشه ويجمده.

كما أن الكلمات والأبيات الشعرية بالنسبة للشاعر ليست سوى لعثمة بلغة أجنبية؛ لكي يعبر بها عن الأشياء التي عاشها ولاحظها، كذلك فإن التعبير عن كل حدس فلسفي عميق بواسطة الجدلية والتفكير العلمي، إنما هو الوسيلة الوحيدة لإشراك الغير فيما عاناه الفيلسوف، ولكنها وسيلة فقيرة، إذ أن الأمر يقوم على التحويل بواسطة الاستعارة إلى دائرة ولغة مختلفتين، وهذا التحويل لا يمكن الركون إليه، وهكذا فإن طاليس قد رأى وحدة الوجود، وحين أراد التعبير عنها لم يجد بدا من أن يتكلم عن الماء».

يا لروعة هذا التحليل يا مولاي!! إنه ليس لي، ومع ذلك فهو ملكي لأنه يعبر عما أريد قوله؛ فله صلة مباشرة بانتحار كاتو. يهيأ لي أن قراءة كاتو استعارة لكي يتحول إلى مكان آخر. هناك حين أراد كاتو الخلود، حين طمع في الخلود لم يجد بدا من أن ينتحر. وقراءته لكتاب «فيدون» لم تكن سوى لعثمة بلغة أجنبية؛ لكي يعبر بقراءته عن الشيء الذي يريده وأراده دائما. إنه الخلود يا مولاي. أليس عنوان كتاب «فيدون» الفرعي هو (في خلود الروح).

(١٠)

نحن يا مولاي نسمي الأشياء لكي نتحدث عنها. وما كان لي أن أحدثك عن تلك المدينة التي رأيتها من غير أن أعرف اسمها.

قال لي الشيخ الجليل

- اسمها «هاديس».

لقد شاء القدر يا مولاي أن يصبح صديقي. ليس صديقا فحسب، إنما ملهما أجده حاضرا خلف كل فكرة أفكر فيها. لو عرفت يا مولاي حينما كنت في المقبرة؛ لربما هربت من مصيري الذي ارتبط بمصيره.

إن أجمل ما في صداقتنا يا مولاي أن لقاءنا لا يحتاج إلى ترتيب؛ فقط يحتاج إلى فرصة مواتية، شيء ما أشبه ما يكون بانغماس فجائي في حلم يقظة لكي أجده، من غير أن أسأل كيف حدث هذا؟ ولماذا؟ ثمة شيء مجهول يجعله أقرب إلي من حياتي التي أعيشها.

قال

- لا بد من أن أصف المدينة لك.

حينما شعر بفضولي قال

- ما الذي سأحدثك عنه! ألف وصف يعجز عن نقل الواقع.

تمتد مدينة «هاديس» يا مولاي على جانبي نهر، وتقع المدينة القديمة على الضفة الشرقية، ويقابلها على الضفة الغربية المدينة الجديدة. قريبا من الضفة الشرقية يقع ما يسمونه «دار شرفة السماء والأرض» وعلى قمتها معبد صغير يشرف على منظر السهل الذي يمتد أمامه. شيء يثير الخيال يا مولاي تلك الحديقة المعلقة التي أقامها أحد الأثرياء لمحظيته الجبلية بعد أن اكتأبت من مناظر السهول، وأرادت أن ترى ما يشبه جبال بلادها.

مدينة لا تفارقك ما إن تودعها في مكان حتى تجدها في مكان آخر، تريك ما هو أكبر؛ لكي يكون هناك ما هو أصغر، تقول لك ما هو حقيقي؛ لكي يكون هناك ما هو مزيف، تحلق بك في الواقع؛ لكي يكون هناك ما هو خيالي، تبدعك بحيث لا تعرف أي جزء منك ينتمي إلى الحلم، ولا أي جزء منك ينتمي إلى الواقع، حتى أنك تعيش كل ما كنت تحلم به.

لمدينة «هاديس» يا مولاي أساس زراعي سائد، لكن فيها صناعات ملحوظة فيما لو سرت في طرقاتها؛ فهي تشتهر بنوعية عالية من العربات، وعادة ما يوصف الناس بأعمالهم. نجد من يوصف بأنه صاحب زورق، أو نجار أو عامل جلود، أو صياد سمك، أو فخار، أو بناء، أو حائك، أو قصاب أو رسام. كل هؤلاء يتواجدون بعد إنجاز أعمالهم في مكان في وسط المدينة يتجادلون، ويتناقشون، ويتحاورون ويوازنون بين المرشحين الذين هم أيضا يقيمون الولائم.

هل هناك على الجانب الآخر حياة؟ سقراط يا مولاي في كتاب

«فيدون» يقول بذلك. الأدق أن أقول: إنه يأمل. علينا أن نضع هذا الأمل في سياقه؛ ففي وضعية كوضيعة سقراط مقبل على أن يتجرع السم فهو في حاجة إلى الأمل أكثر من أي وقت. الأمل يا مولاي غير التوقع، وليس له علاقة بالكيفية التي يحتمل أن تصبح عليها الأمور هناك. وقد كان هذا مصدرا عميقا لراحة سقراط النفسية. راحة تساعده على أن يتجرع السم ليموت برباطة جأش.

ولهذا السبب لم يكن حزينا. وبالرغم من تحذيره أن النقاش في مسائل كهذه يزيد من سرعة السم وتفاعله، إلا أنه صمم أن يبرر لأصدقائه السبب الذي يجعل رجلا قضى حياته في الفلسفة أن يكون واثقا وهو على وشك الموت، وأن يكون على أمل من أنه سيصيبه الخير العظيم.

أعتقد يا مولاي أن هذا سبب جدير بأن نضعه في أذهاننا، فكاتو قرأ «فيدون» لكي يأمل وهو على وشك أن يلقي نفسه على سيفه أن هناك عالما آخر سيصيبه فيه الخير. ليس هذا فحسب بل أنه سيجد رجالا خيريين، و سيكون مصيره هناك أفضل من مصير الأشرار، وأن خيرات جَمة تنتظره في العالم الآخر. ما الذي يعنيه هذا؟ أن يسلم كاتو جسمه للزمن والموت؛ يسلمه ليبحث عن الحياة في مكان آخر؛ مكان تنفصل فيه روحه عن جسمه لترتفع عن الزمن، ولتستقل، ولتصبح حرة، وقادرة على أن ترى رؤية مكتملة.

(١١)

صباح اليوم يا مولاي لم أعد إلى قراءة الرواية؛ ربما لأنني شعرت أن كل شيء فيها محسوم منذ الأزل؛ لذلك حاولت أن أحلم بالكون قبل أن يخلق الله الشمس، تخيلته عاريا شديد الوحشة. مترعا بالكمائن في سهوله وهضابه، ومع ذلك فقد وجدته كونا مدهشا وهادئا.

لم أخرج فقد ظللت أقرأ كتاب (تاريخ الشمس) أول وآخر الكتب التي تؤرخ لمُلْك الشمس.

أول عبارة في الكتاب هي:

بدأ مُلْك الشمس قبل مُلْك البشر.

ما إن قرأت العبارة حتى تساءلتُ

- كيف حافظتْ الشمس على ملكها مرة واحدة منذ ولد؟ ما السر في أنها حافظت على مملكتها متماسكة كماسة صلدة لامعة؟

قال

- يكمن السر في سيرتها التي تخضعها لقانون صارم، كل يوم تسير من المشرق إلى المغرب، لم يحدث قط أن خرقت هذه السيرة، لقد رتبت عالمها بهذا القانون.

كان ذلك جواب الشيخ الجليل. لا يمكن لمَنْ لا يعرفه يا مولاي أن يتخيل شخصيته؛ شخصية تبحث عن مؤلف، من تلك الشخصيات التي قال عنها (ماركيز) يبقى الروائيون في انتظارها طيلة حياتهم، وإذ لم أسمح له بالعثور علي كمؤلف؛ فلأنني مازلت مؤلفا مبتدئا نشرت له بعض القصص، ثم إنه شخصية تحتاج إلى مؤلف خبير ومحترف.

إنه يجيب أحيانا من غير أن أراه، شيء ما يا مولاي يشبه أن أعرف فطريا. لست نبيا لكي يوحى إلي وإن كانت النبوة تتطابق تماما مع المعرفة الفطرية كما قال أحد الفلاسفة؛ لأن ما نعرفه بأنوارنا الفطرية معرفة تعتمد على معرفة الله وحدها، وعلى أوامره الأزلية.

تساءلت مرة ثانية

- ماذا يحدث لو أنها أخلت بقانونها.

قال

-وفقا لأولئك الذين يعرفون لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ سيحدث كارثة كونية هائلة لم يكن من الممكن لأي إنسان أن يفكر فيها. ستموت الشمس، وهي تتمتع بقواها كاملة. سيكون موتها لطيفا، سيُلَف ضوؤها، ويذهب انبساطه، ثم يتلاشى، ويضمحل؛ ليدخل الكون في ظلمة كلية من غير صور أو رؤى، ثم ينفجر.

قال لي

- إن السبب الذي يجعل مدينة هاديس خالدة، وأهلها خالدون أنها خارج الزمن.

ولأنه لاحظ أنني لم أفهم، فقد تابع

- كل مكان تشرق عليه الشمس مؤقت. إنه كاللحم حياته مؤقتة.

ولكي يدلل على ما يقول: شرع يحكي لي حكاية فتية هربوا من ملك اسمه (دقيانوس) ولجؤوا إلى كهف مكثوا فيه سنوات طويلة. لم تبل أجسادهم؛ لأن الشمس (تزاور) أي تميل عن كهفهم وتتنحى وتروغ حينما تشرق و (تقرضهم) أي تعدل عنهم وتتركهم حينما تغرب.

إن ما أذهلني يا مولاي أنه تلا علي آية من كتابنا المقدس (القرآن الكريم). قرأ: «وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه». لينهي حكايته أن لا قوة فوقية تدخلت لكي تبقيهم أحياء، أو أن يبقوا متمتعين بشبابهم؛ إنما كان ذلك نتيجة قانون احتجاب الشمس عنهم، وفيما لو حتى فكرنا في تدخل قوة فوقية؛ فإن القدرة تُعزى؛ لا إلى أنها حافظت على شباب هؤلاء الفتية، بل في حَرْف الشمس عنهم.

لقد فهمت منه يا مولاي أن مشكلة البشر تكمن في أنهم لكي يفهموا الطبيعة لا يرجعون إلى الطبيعة ذاتها، بل يرجعون إلى الكتب، وأنهم يخطئون أيما خطأ حينما يجعلون من كتبهم المقدسة مصادر علمية. أيكون كاتو أخطأ طريق المعرفة لأنه اعتمد على كتاب؟ ربما فألغاز الكتب ليست ألغازا موجودة فيها فحسب؛ إنما هي جزء من الحياة ذاتها. الحياة التي هي لغز خيالي يبحث عن لغز حقيقي أو العكس.

(١٢)

هناك فكرة جديرة بالملاحظة يا مولاي هي المواكبة بين ميلاد الفلسفة وبين حلول الإنسان المواطن؛ ذلك أن مدينة (هاديس) وكما شرح لي الشيخ الجليل تَفْصل على مستوى أشكال الحياة الاجتماعية بين الطبيعة وبين المجتمع.

قال لي

- هذا الفصل تفرضه ممارسة الناس الذين يعيشون فيها للتفكير العقلاني على مستوى الأشكال الذهنية. ويفرضه نظامها السياسي الذي انفصل عن التنظيم الكوني، وظهر كمؤسسة بشرية تخضع لبحث دائم ونقاش حاد.

قلت

- هذا يعني أن تتدخل الفلسفة التي نشأت مع نشوء المدينة.

قال

- معك حق؛ فقد مكنت الحكمةُ الفيلسوفَ من أن يقترح إصلاحا للخلل الذي أحدثته إرهاصات الاقتصاد التجاري الذي بدأ في المدينة. وقد انتظر الناس من الفيلسوف أن يحدد التوازن الجديد الذي يستعيد الانسجام المفقود، وأن يعيد الوحدة

والاستقرار الاجتماعيين، عن طريق الوفاق بين العناصر التي كان تعارضها يمزق وحدة المدينة.

إن هناك علامة على الإنسان الحكيم يا مولاي؛ فالإنسان الحكيم ليس كذلك لأن لديه القدرة على أن يعمل؛ إنما لأن لديه نظرية عن نفسه، ثم إنه يعرف الأسباب. الحكمة يا مولاي تعتمد على المعرفة، وكما قال لي الشيخ الجليل ونحن ننتهي من النقاش

– علامة الإنسان الذي يعرف هي أنه يستطيع أن يعلم غيره من الناس.

أين تعلم ذلك الشيخ الجليل الفلسفة؟ لا أعرف ولهيبته لم أجرؤ قط على سؤاله. أيكون هو طاليس أو ديموقريطس أو برمنيدس. أيكون سقراط نفسه في المكان الذي رغب أن ينتقل إليه؟ أيكون هو أفلاطون؟ أرسطو؟. أيكون اسبينوزا أو كانت أو هيجل أو حتى نيتشة أهو كاتو؟ أيكون رضوان خازن الجنة؟ أو مالك خازن النار؟ إلى تلك اللحظة لم أكن أعرف من هو.

حين يتكلم يا مولاي لا أستطيع أن أتجنب إحساسي بالحنين إلى الكثير الذي يعرفه ولا أعرفه، إلى كل ما قرأه ولم أقرأه، وما خبره ولم أخبره. تعلمت منه يا مولاي أن كلمة nostos باليونانية تعني «العودة»، وأن olgos تعني «معاناة» وأن nostalgia تعني «الحنين» أي المعاناة الناتجة عن الرغبة غير المشبعة بالعودة.

الحنين يا مولاي «ألم الجهل». أنت بعيد ولا أعلم عنك شيء، بلدي بعيد عني ولا أعرف ماذا يجري فيه. أتكون يا مولاي «هاديس» هي المدينة التي أُعيد اكتشافها، وبقي في كل منا آثار خطوات طفولتنا الضائعة هناك؟ حيث تكتمل طبيعتنا البشرية في

مناخ هادئ وثابت وأزلي؟ أنا وأنت يا مولاي؛ عوليس التائه الذي يعود إلى جزيرته بعد أن تاه سنوات طويلة؟.

كان الشيخ الجليل يقول ونحن نبدأ نقاشا آخر:

- الحنين إلى الجنة يعود إلى رغبة الإنسان في ألا يعود إنسانا.

كما فهمت من الشيخ الجليل يا مولاي. هناك ثلاث خصائص للروح هي: الاستقلال أو الحرية والوضوح أو الاستبصار أو اكتمال الرؤية، ثم الارتفاع عن الزمن، وأن هذه الخصائص هي ذاتها خصائص المعرفة، وفيما لو اعتمدنا على حواسنا لكي نعرف؛ فإنا سنفقد صفات كالوضوح واكتمال الرؤية، وسنعيش في حال من الاضطراب لا ينتهي.

إن لهذا يا مولاي علاقة بالانفصال بين الروح والجسم؛ ففيما لو توحدت به الروح؛ فإنها ستضحي بخصائصها: أي ستضحي بحريتها، واكتمال رؤيتها، وارتفاعها في الزمن. يراودني الآن خاطر أن ماركوس بوركيس كاتو أراد لروحه أن تكون حرة، وأن تكون متبصرة، ومرتفعة فوق الزمن؛ لذلك انتحر. لو لم يفعل فسيتملك روحَه القلقُ والخوفُ أمام الموت الذي لا مهرب منه، مثلها مثل كل الأشياء الطبيعية التي تَعْبُر وتنقضي.

(١٣)

على الرغم يا مولاي أن بعض أصدقاء سقراط تقبلوا تفرقته بين الروح والجسم على أساس المعرفة، إلا أن بعضهم تساءل كيف يعني ذلك الخلود. أقول هذا مع أنني متأكد أنهم موقنون أن سقراط سيبقى بعد موته، سيبقى هناك في مكان آخر، وعلى مستوى آخر من السمو والجلال.

لقد ذكرني الشيخ الجليل الذي لم ينس تفاصيل ما حدث؛ أن صديقا من أقرب أصدقاء سقراط وضح لسقراط بعد أن مدح كلامه ووصفه بالجميل؛ أن ما شرحه عن طبيعة الروح؛ لا يعطي الأشخاص العاديين سببا لأن يعتقدوا أن الروح كذلك فربما شككوا. ولأنني أثق في كلام الشيخ الجليل لم أراجع كتاب فيدون، وحتى لو راجعته فإنني متأكد أن هناك من شكك فعلا.

أنت تعرف بقية الحكاية يا مولاي؛ إذ بدأ سقراط يبرهن.

أتذكر أن الشيخ الجليل قال:

- بدأ سقراط بأضعف برهان وأكثرها غرابة.

سألته

- ما هذا البرهان؟

قال

- الأسطورة الأوروفية. تلك التي تقول بوجود الأرواح في عالم آخر قبل وبعد وجودها الأرضي.

عدت أنا والشيخ المهيب إلى كتاب فيدون لكي نتابع سقراط وهو يبحث عن دليل يدعم هذا الاعتقاد. ويستحث أصدقاءه على أن يلاحظوا أن الموت هو ضد الحياة، وعلى هذا فلابد أن يتولد أحدهما عن الآخر.

ما إن فتحت الكتاب حتى قال لي

- دعك من الكتاب. سأتلو البرهان عليك عن ظهر قلب.

سقراط: ماذا يخرج إذن مما هو حي؟

كيبيس: ما هو ميت

سقراط: وماذا يخرج مما هو ميت؟

كيبيس: من الضروري الإقرار بأنه الحي.

سقراط: فمما هو ميت إذن يا كيبيس تنشأ الكائنات الحية والبشر الأحياء.

كيبيس: هذا هو ما يظهر.

سقراط: إذن فأرواحنا تكون في هاديس.

كيبيس: يبدو هذا.

قلت

- يبدو أن هاديس تشبه قرية (ماتوسالين) التي أقامها(خيراردو ماريا)خارج الزمن، وتواجد فيها إينيشتين، وماركس، وجوتنبرج، ولا فوازيه، وداروين، وكثيرون غيرهم.

قال

- أعرف تلك القرية. أعرف أيضا مدنا لا وجود لها على أي خارطة رصدها الرحالة الشاب الفينيسي (ماركو بولو) لإمبراطور التتار (قبلاي خان).

عدنا إلى حوار سقراط. قال

- منذ البداية يخبرنا سقراط أن الإنسان حينما يموت يذهب إلى مكان آخر من غير أن يصطحب معه جسده؛ بناء على هذا فهو لا يتوقف عن وجوده. هو موجود هنا وموجود هناك، حي هنا وحي هناك. يترتب على هذا أن تضاد سقراط هو بين الحياة على الأرض وبين الحياة في عالم آخر، وليس تضادا بين الحياة وبين الموت.

ولكي يختم فكرته قال

- لقد مضى سقراط إلى نتيجته بأسرع مما كنت أتوقع منه؟.

إن السؤال الذي أرقني يا مولاي أيكون كاتو تورط فيما فعله بسبب كتاب فيدون الفلسفي؟ أنى له أن يعرف؟! في كل مكان تقريبا يا مولاي، في الكتب المقدسة وغير المقدسة، في الكتب الفلسفية وغير الفلسفية، في الكتب الرديئة والجيدة، في المملة والممتعة، لون الحبر واحد، وأشكال الحروف لا تختلف بين كتاب وآخر، وتراكيب الجمل مثلما هي، وعلامات الإعراب الدالة على المعنى هي واحدة في كل الكتب. كيف يتأتى لكاتو أن يعرف الحقيقة؟.

غير أن تعبير إسماعيل (في رباطة جأش المتفلسف) طمأنني؛ أو على الأقل أشعرني أن الانتحار عند كاتو لم يكن تورطا، إنما

هو السعادة الأخيرة التي تُمنح لقائد رجع إلى الفلسفة بعد أن كان تعيسا وهو قائد. هكذا فكرت يا مولاي: انتحار كاتو بحث الفيلسوف عن رؤية للعالم، عن منظر فريد لما هو موجود في روحه بعد أن انهار جسده ليصل إلى العدم.

(١٤)

أعتقد يا مولاي أن من يرجع من رحلة الموت يصبح جزءا من مرتبة وجودية مختلفة من مراتب الكون. يفتقد التفكير، والقدرة على أن يتكلم، ويصبح كائنا غير مرئي. لا أعرف ما إذا كان سقراط يعني هذا وهو يتحدث عن الأشباح والأطياف التي توجد قرب القبور. وكما يعرف عظمتكم فإن مسألة أن هذه الأشباح هي لأرواح لم تتحرر تحررا كاملا في ساعة موتها، وأن وجودها الأرضي بقي عالقا بها من المسائل التي تحدث عنها أفلاطون في كتاب فيدون.

كيف فطن الشيخ الجليل إلى ما أفكر فيه؟!

قال

- لست طيفا، ولا روحا لم تتحرر من وجودها الأرضي.

وأضاف

- إن استطراد سقراط حول «التناسخ» أي إن أؤلئك الناس الشرهين والنهمين والأنانيين والمعربدين والسكارى معرضون لأن يتلبسوا أشكال الحمير استطراد غير مبرر. مثلما هو غير مبرر استطراده عن المواطنين العاديين الذين استطاعوا بدون عون من

الفلسفة أن يتحكموا في ذواتهم أن يولدوا في شكل كائنات أكثر انضباطا كالنحل والنمل.

مجرد الطريقة التي قال بها الشيخ الجليل

- ومع ذلك يمكن أن يكون لاستطراد سقراط قيمة في إطار أن للمعرفة تأثيرا فعليا في مواجهتنا الموت

أو ضحت لي مرة أخرى أي عمق معرفي يمتح منه. إنني أتذكر ذلك الشيخ الجليل يا مولاي بشيء من الارتياح. أتذكره لأني توصلت إلى أنه ليس شبحا ولا طيفا في مقبرة، وحين أعيد النظر الآن في أحد الأسباب التي جعلتني أحبه أجد ذلك العالم الذي غمرني فيه، العالم السري في معانيه الدقيقة، وفي وتعابيره وإشاراته.

برهان التذكر الذي أكد به سقراط خلود النفس معروف لعظمتكم، وأنا متأكد أنه لا يثير لديك يا مولاي إلا الملل؛ لأنني سمعتك مرات كثيرة تتحدث عنه مع جلسائك الخاصين، البرهان الذي تبدأه بقولك: الذي يعرف لا يحصل فعلا معرفة، إنما يتذكر ما كان معروفا بالفعل. لكنك يا مولاي لم تكن تحكي لهم حكاية سقراط والعبد الصغير الذي سأوردها الآن لعلاقتها بتقرير عبدكم الوضيع والمطيع.

ورد ذلك في كتاب «مينون» حيث أثبت سقراط لصديقه أن عبدا صغيرا غير متعلم يستطيع أن يقوم بتمارين رياضية بسيطة.

سقراط: ادع لي واحدا من خدمك العديدين هؤلاء، أي واحد تشاء منهم، وذلك حتى أقدم عليه بياني.

مينون: كما تشاء. تعال هنا.

سقراط: هل هو يوناني ويتكلم اليونانية؟

مينون: يقينا، لقد ولد في بيتي.

سقراط: والآن ركز انتباهك لتلاحظ إن كان سيبدو لك أنه يتذكر أو إن كان يتعلم مني.

مينون: سأوجه انتباهي لملاحظة هذا.

سقراط: قل لي يا ولد. هل تعرف أن المربع هو شكل كهذا.

العبد الصغير: نعم.

سقراط: إذن فإن الشكل المربع هذه الأضلاع المتساوية كلها، وعددها أربعة.

العبد الصغير: تماما.

سقراط: وهذه الخطوط تقسمه من الداخل، أليست متساوية هي الأخرى؟

العبد الصغير: نعم.

. . . . . .

الخلاصة يا مولاي هي

سقراط: أنت ترى يا مينون كيف أني لا أعلم هذا العبد شيئا، وإنما أكتفي بطرح الأسئلة عليه. وهو يعتقد في هذه اللحظة أنه يعرف الضلع الذي ابتدأ منه سيبني الشكل الثماني الأقدام.

ما إن انتهيت من قراءة الحوار حتى قال الشيخ الجليل

- لم يكن سقراط أو أفلاطون أول من قال بخلود النفس.

- من إذن؟ سألته

قال

- طاليس.

قلت

- والأسلوب؟ من أين استقى سقراط هذا الأسلوب في الحوار؟.

قال

- كانت أم سقراط قابلة.

مولاي. يعرف عظمتكم أن القابلة لا تخلق المولود، إنما تقدم مساعدتها لكي يخرج إلى الدنيا وهو ما يزال على قيد الحياة. وكما لو كان قابلة تتمثل مهمة سقراط في توليد العقول أفكارا صحيحة. المعرفة يا مولاي لا تأتي إلا من دواخلنا ولا أحد يمليها عليها.

يرى سقراط يا مولاي أن العبد الصغير حصل على المعرفة قبل أن يولد؛ وبالتالي فإن روحه وجدت قبل ميلاده. نحن يا مولاي لا نتذكر المعرفة لأننا فقدناها في اللحظة التي ولدنا فيها. لقد اعتبر سقراط المعرفة ترياقا فاعلا ضد الموت، وهي مصدر قوة، وبدون أن نعرف من المحتمل أن نبقى في مستوى يقل عن مستوى الإنسانية. أعتقد يا مولاي أن بقاءنا في مستوى أقل من مستوى الإنسانية هو إذلال لنا. المعرفة قوة لكي تجعلنا في مستوى الإنسانية، وأفكر الآن أن كاتو انتحر لأنه يعرف، ويريد أن يكون في مستوى الإنسانية، لا أن يبقى أقل مستوى ذليلا وشقيا. لماذا على امرئ واثق من أنه سيكون في مستوى الإنسانية أن يفكر في حياته؟.

(١٥)

لا بد من أن سؤالا طرأ على ذهنك يا مولاي هو: لم أصف ذلك الشيخ بالجليل؟. كما يعرف عظمتكم فالوصف نعت للأشياء والكائنات، وهو من باب المعرفة التي تُبرِز من الشيء أو الكائن ما يتميز به، وما هو ثابت وقار فيهما. ولقد وصفته بالجليل لهذه الأسباب. الجليل يا مولاي مفهوم فلسفي يعني أن ذلك الشيخ جاوز الحد من نواحي الفن والأخلاق والفكر.

في ذلك اليوم أتذكر أنه سألني

- ما الشيء الذي يتعرض بطبيعته لأن يتبدد؟

قلت

- الشيء المركب.

قلت ذلك لأنني قرأت تفريق أفلاطون على لسان سقراط بين نوعين من الجواهر هما: البسيط والمركب. الشيء البسيط يا مولاي يتكون من عنصر واحد، ولأنه كذلك فهو لا ينقسم، ولا ينحل إلى أجزاء. وعلى العكس منه يتكون الشيء المركب من أشياء عديدة، ومن الممكن أن ينحل إلى عناصر، ولأنه مركب فهو يخضع للتغير، وعلى العكس منه لا يتغير الشيء البسيط.

ما يميز البسيط أو غير المركب يا مولاي أنه لا يُدرك بالحواس. أي لا يمكن أن يُرى بالعين، أو أن يُسمع بالأذن، وقد هدف أفلاطون على لسان سقراط من هذا التمييز أن يصل إلى أن الروح غير مرئية؛ أي أنها لا تُرى ولا تُسمع، وهي بطبيعتها يجب أن تتعلق بما هو غير مرئي؛ لأن غير المرئي لا يُدرك بالعين ولا بالأذن، ولا بأي حاسة أخرى، إنما يدرك بالعقل.

الروح يا مولاي بما أنها كذلك فهي غير قابلة للتغير، والفكرة الأساس هي: بما أن الروح لا تقبل الانقسام أي أنها جوهر بسيط؛ فإنها لن تتحطم أو لن تتغير فيما لو مات الإنسان. يبدو يا مولاي أن كاتو يعرف ذلك؛ أي أنه انتحر وهو متأكد أن روحه لن تتغير فيما لو فعل ذلك؟.

يعتقد أفلاطون أن هناك (أنا) قبل أن تكون هناك تجربة. ماذا يعني هذا؟ يعني لو أن أرواحنا مركبة أي قابلة لأن تتغير؛ فمن المحتمل يا مولاي أن يصحو أحد منا وهو ليس الشخص الذي نام عليه البارحة. لماذا؟ لأننا في كل يوم نكتسب أفكارا جديدة، وأساليب حياة مختلفة. تختلف انفعالاتنا، ونخضع لتجارب متباينة. الـ(أنا) هنا يا مولاي ليست صنيعة تجاربنا السابقة، وليست هي في ذاتها تجربة، ولا تجارب مجتمعة؛ لذلك فـ(أنانا) موجودة قبل تجاربنا.

الحقيقة يا مولاي أن القول بأن هناك (أنا) قبل التجربة أساس صلب ومتين لنظرية أفلاطون في الخلود. والنقلة هنا كما يلاحظ عظمتكم بسيطة لكنها تفضي إلى استنتاج مفاده: ما دامت أرواحنا غير قابلة لأن تنقسم، فإن الموت ذاته غير قادر على أن يحطمها أو

حتى يغيرها، وأعتقد يا مولاي أن هذه الفكرة كانت حاضرة عند كاتو لكي يقدم على الانتحار.

فيما أنا أفكر في أن أختم هذا الفصل طفا الشيخ الجليل قائلا

- قبل أن تختم هناك فكرتان فيما كتبتَه لهما تأثير عظيم على تاريخ الفلسفة.

إنه مطلع على تاريخ الفلسفة. قلت هذا لنفسي، وما أدهشني أنه قال

- معك حق. أعرف تاريخ الفلسفة الكلي.

لم أنقل له اندهاشي حينما يعرف ما أفكر فيه. وبدلا من ذلك سألت

- ما الفكرتان؟

قال

- الأولى: ما هو واقعي أو حقيقي هو دائما غير متغير.

قلت

- والفكرة الثانية؟

قال

- يجب أن تشبه الروح الحقيقة لكي تعرفها.

وكعادته في أن يختم كل تعليق له بخلاصة. قال

- أفلاطون يرى بمعنى من المعاني أن الروح إلهية.

(١٦)

اليوم يا مولاي قلت لنفسي: لم لا أقوم بتجربة ذهنية؟ أن أعود إلى قريتي وليس معي سوى كتاب واحد هو كتاب فيدون. هناك أعكف على تأمله ما استطعت من الوقت. سأستغني عن كل الوسائط كشراحه ومفسريه ومؤليه. أفعل ذلك حتى أعرف بالتحديد ما الذي سيبعثه في نفس خادمكم المطيع في عمره الحالي، وثقافته وتجربته التى مر بها.

قال لي الشيخ الجليل

- لا تفعل الآن.

ولأنه رآني مكدرا. قال

- هل قرأت كتاب (جاك المؤمن بالقدر)؟

قلت

- نعم.

قال

- أجمل ما في ذلك الكتاب، أن البشر يعتقدون أنهم يقودون القدر، لكن القدر هو الذي يقودهم دائما. القدر بالنسبة لـ(جاك)، يتمثل في كل ما يلمسه أو ينتمي إليه.

قلت

- أتذكر حصان معلمه الذي سرق وهو نائم فقال لمعلمه. . . .

قاطعني

- قال جاك لمعلمه: فيما كنت تنتظرني، كان مكتوبا فوق أن ترقد فتنام، وأن يسرقوا حصانك، فلتكف عن التفكير في ذلك، إنه جواد ضائع، وقد يكون مكتوبا فوق أن نعثر عليه.

قلت

- نحن لا نعرف مما نفرح، ولا نعرف مما نحزن، الخير يجلب الشر، والشر يجلب الخير، ألم يقل جاك لمعلمه «نحن نسري في الليل تحت ما هو مكتوب فوق، بحالة غباء في أمانينا، وفي فرحنا، وفي حزننا على السواء»

قال

- البشر يجهلون ما هو مكتوب فوق، لا يعرفون ما يريدون ولا ما يفعلون، يسيرون وفق رغبة القدر فيدعون ذلك عقلا.

قلت

-هل تعرف وسيلة لمحو تلك الكتابة؟ هل أستطيع ألا أكون أنا؟ أما وإني أنا، فهل يسعني أن أتصرف بطريقة مغايرة لي أنا؟ هل مرت لحظة منذ ساعة وجودي في هذا العالم، لم يكن ذلك فيها حقيقيا؟

قال

- هذه أسئلة (جاك) المؤمن بالقدر.

قلت

- كما لو كان مكتوبا فوق أن يسألها، وأن أكررها أنا عليك.

في ذلك اليوم؛ أقلقني سؤال هو: أيكون ما أفعله هنا عبث؟ كل ما في الأمر أن هناك قدرا مكتوبا مضمونه أن كاتو سيقرأ كتاب فيدون، وأنه سينتحر؟. وما أقلقني أكثر أن الشيخ الجليل لا يقول كلاما لمجرد أنه كلام. ولا بد أن معنى ما علي أن أبحث عنه لكي أضمنه تقريري هذا.

(١٧)

في ذلك اليوم يا مولاي وفيما أنا أفكر في الحوار الذي دار بيني وبين الشيخ الجليل نبعت في ذهني فكرة الكتاب (اللامرئي واللامقروء) الذي تتحدث عنه الأديان الكبرى كالمسيحية واليهودية والإسلام، فكل شخص منا يحمل على جسده موجزا من ذلك الكتاب الأولي، من النص الذي يحدد مصيرنا ويتحكم في أبسط حركاتنا. ومع ذلك فإننا لا نتمكن من قراءته، لا لأننا قراء سيؤون، إنما لكون أعيننا تعجز عن أن ترى ما هو مكتوب أعلاها (على الجبين).

وفق هذا الكتاب يا مولاي؛ ما يحدث بالضرورة، أو ما هو متوقع، أو ما يتكرر كل يوم، يبقى شيئاً غامضاً وملتبساً. وحدة القدر الذي يستطيع أن يدشن هذا الذي حدث أو الذي سيحدث. نحن لا نولد من أرحام أمهاتنا، بل من رحم القدر. نولد ونتصرف وفق عبارة أعلى أعيننا (اللي مكتوب فوق الجبين لازم تراه العين) ونتصرف وفق هذه العبارة التي تحوي داخلها برنامجاً مكثفاً بحيث لا نعيش أو نتحرك أو نموت إلا بما هو مكتوب فوق أعيننا ولا نراه.

عندما نقرأ يا مولاي «إن أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فقال ما أكتب؟ فقال أكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد» يغمرنا شعور بأننا لن نستحوذ على حياتنا، ولن نقتطع منها جزءاً رقيقاً وصافياً نتحكم فيه كما نشاء؛ لأن القلم قد سجل كل الأشياء، سجل الأشياء التي ستسحرنا أو التي ستعجبنا أو التي ستجعلنا ننفعل أمامها أو التي تعطي لحظات حياتنا متعتها.

منذ أن خط القلم الأول على الصحف الأولى، لن يعود لنا نحن البشر الحق في أن نتصرف أو ننفعل أو نحب أو نكره، أو نترك أثراً دائماً أو عابراً من تصميمنا الخاص. نحن نبدأ في اللحظة التي كتب فيها القلم دخوله إلى اللوح المحفوظ وفيما بعد ستجف الأقلام وترفع الصحف.

لقد «كتب الله نسخة العالم من أوله إلى أخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة» وهكذا خُلقت حياة العالم من لوح منقوش عليه ما سيحدث، وبما أننا ننتمي إلى هذا العالم فلم يبق لنا شيء ما نعتبره رسالتنا الشخصية كي نعيش من أجلها. ونحن نعرف ذلك لم نتصد ولم نثر، بل استرسلنا في ضعفنا وأنسبنا كالماء الهادئ في مجرى القدر.

قبل أن نعيش مغامراتنا يا مولاي، حياتنا، سعادتنا، وتعاستنا، حبنا وكرهنا، بل حتى قبل أن نولد حكايتنا مسجلة في كتاب أصلي هو منبع لكل تصرفاتنا، منبع آلامنا وأحزاننا وفرحنا، كل شيء مسجل ومنقوش في هذا الكتاب اللامرئي واللامقروء. كل واحد منا يا مولاي يحمل على جسده أثرا من ذلك الكتاب، الذي يحدد مصيرنا ويتحكم في أبسط حركاتنا. نحن لا نستطيع قراءته لا

تتمكن من قراءته لكون أعيننا عاجزة عن رؤية ما هو مكتوب على الجبين.

نحن بشر يا مولاي ننحدر من كتاب كل ما فيه مقدر سلفاً، وحياتنا بمثابة صدى وانعكاس لذلك الكتاب، هكذا يفرض علينا المكتوب ذاته أولاً وآخراً بدءاً وختاماً. سنكون سذجا لو اعتقدنا لحظة واحدة أن الصدف تتحكم في حياتنا. على العكس فنحن لا تتحرك صدفة بل تتحرك وفق عبارة المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين.

حينما أنهيت ما كتبته أعلاه سمعت تصفيقا متبوعا بقول الشيخ الجليل

- أحسنت. . . أحسنت.

هذه المرة الأولى التي يقول لي فيها هذا.

ثم أضاف

- يتصرف القدر أحيانا بغموض.

ولأنني لم أفهم شرع يشرح

- ما الذي يُعرف أو لا يُعرف عن الأدوات التي يستخدمها القدر لكي يحقق بها أهدافه؟! أليس من الممكن أن يختار لذلك كتابا ككتاب فيدون لا يؤخذ مأخذ الجد في كونه قاتلا.

قلت

- ولم لا يكون السيف؟

قال

- أيا يكون ما يختاره. المهم أن القدر لا يظهر مجردا؛ إنما يختار أداة له قد تكون سيفا أو كتابا أو أي شيء آخر.

تلك كانت وقائع اليوم. كان لابد يا مولاي أن يمر يوم آخر كي أعود إلى تفحص ما دار من حوار مع الشيخ الجليل. يمكننا أن نحارب الموت، ألا نحبه، أن نتحدث عنه بوصفه عدوا لنا نحن البشر، لكن حينما يقبض على أحدنا فلا أحد يستطيع أن يخلصنا، لا شيء يمكن أن نفعله.

نحن يا مولاي خانعون أمام رغبات العالم الآخر الذي قد يوظف كتابا أو سيفا لكي يجذبنا إلى هناك. أيكون القدر يا مولاي قد اختار سيفا لكي ينفذ هدفه فيما يتعلق بالمسكين ماركوس بوركيس كاتو. ليس سيفا فحسب؛ إنما كتاب فلسفي هو كتاب فيدون.

إن حدث هذا فعلا؛ فإن الإحساس بالطمأنينة ونحن في صحبة كتاب يصبح مجرد وهم، أمام القلق الذي ينجم عن إدراك قوامه أن الكتاب يمكن أن يتخذ أو ينحو إلى شكل منذر بالخطر.

إن الكتاب خطير يا مولاي إلى حد أنه قد يقتل، وأن البحث عن السكينة ليس شرطا أن يكون في صحبة كتاب. ربما يكون ماركوس بوركيس كاتو قد بحث عن سكينة في ظل كتاب كي يتغلب على قلق الأسر، لكن الكتاب قتله.

(١٨)

يا لكثرة أحاجي الشيخ الجليل يا مولاي. قبل أن أبدأ في كتابة هذا الفصل كنا قد لعبنا لعبة إلى حد أنه إذا كان لهذا الفصل معنى فإن معناه موجود في هذه اللعبة.

في هذا اليوم قال لي

- سألعب معك لعبة

قلت

- أي لعبة؟!

قال

- أنا القلم وأنت الورقة.

قلت

- لم لا أكون أنا القلم وأنت الورقة؟

قال

- ما رأيك في أن نخضع الخيار لقرعة؟

قلت

- هذا أفضل.

بدأنا نلعب.

قال

- أيتها الورقة.

قلت

- أيها القلم.

قال

- أنت أيتها الورقة لست جديرة بي.

قلت

- أنت أيها القلم لست جديرا بي.

قال

- أيتها الورقة كل يوم تستقبلين أقلاما عديدة.

قلت

- أيها القلم أنت في كل لحظة تكتب في أوراق عديدة

قال

- أيتها الورقة، ليس هذا ما وعدتيني به

قلت

- أيها القلم ليس هذا ما وعدتني به

قال

- أيتها الورقة أنت خنت أولا

قلت

- أيها القلم أنت خنت أولا

لم أعد أتذكر مَنْ منا أنهى اللعبة، لم تكن لتنتهي هذه اللعبة الغريبة يا مولاي لو لم يفعل أحدنا ذلك؛ فبإمكاني أن أكرر ما يقوله دائما. لعبة تشبه الحياة: نسمع شيئا ونكرره من دون أن نفكر. نولد

لنرى الآخرين يعيشون، ونعيش بدورنا لكي نقلدهم من غير أن نعرف لماذا.

ليست الحياة يا مولاي سوى تكرار؛ غير أن الفكرة التي لفتت انتباهي هي أنه (قلم) وأنا (ورقة). كان هذا بالصدفة؛ إذا لم يخطط هو، ولم أخطط أنا أن نحمل اسمي ورقة وقلم؛ فربما كان العكس. يشبه هذا يا مولاي أننا (أنا وأنت) لم نمتلك حق الحياة، إنما ورثناها بالمصادفة.

أيكون كاتو قد وصل إلى هذه الفكرة؟ ربما. إن ظهور البشر يا مولاي على الأرض كان أمرا غير قابل للاحتمال؛ بحيث يبدو كما لو أن الطبيعة قد تآمرت لكي نكون. ليس هذا فحسب فهناك احتمال أميل إليه هو أن الكون قد خلق البشر؛ ليكونوا هم وسيلته إلى الخلود.

نحن البشر يا مولاي حاملو مهمة خلود الكون؛ أيكون كاتو ثائرا إلى حد أنه يرفض ما خطط له الكون فانتحر لكي يضع الكون أمام أمر واقع هو: أن على الإنسان ألا يكون كالزهرة البريئة؛ إنما كالأفعى التي تحتها. محتمل أن يكون فكر كذلك. شيء عظيم يا مولاي أن يكون تمرد على الكون. الكون الذي أعد له أن يموت بطريقة عادية، أما هو فيلعب مع الكون لعبة خبيثة؛ يبحث عن طريقة موت لم يفكر فيها الكون. إن أعجب الأشياء التي قد نقوم بها يا مولاي لا نستطيع ذكرها، وأننا لا نخلف شواهد عن أعمق ما نفكر فيه لكي نقوم به.

(١٩)

يَعِن لنا نحن كتبة التقارير يا مولاي أن نشرع في الكتابة وقد حددنا مسبقا عدد الصفحات، وما إن ننتهي من كتابة نصف الصفحات التي حددناها حتى يجف المحتوى، فلا نعرف ما نفعل. إن هذا خطير. اليوم راودتني فكرة أنني غير قادر على أن أتقدم في كتابة هذا التقرير. فكرة أغرقتني في حالة من الذهول؛ لذلك عَن لي أن أراجع مع الشيخ الجليل الفصول التي كتبتها.

قال لي

- أي تقرير هذا!! لم تقل فيه إلى الآن سوى الأشياء الصغيرة؛ بينما يقيت الأشياء الكبيرة صامتة لم تُلفظ قط.

تفوه بهذه الملاحظة كما يتفوه بها عالم خبير وحكيم. أو لأقل تحدث كما يليق بعالم أن يتحدث؛ لغة صافية، سليمة؛ أكثر من فكرة السلامة ذاتها، حتى أنني فكرت في أنه فكر في قواعد اللغة أكثر مما فكر فيما ستنقله.

لم أفهم ما الذي يعنيه بالأشياء الكبيرة. ولكي أفهم أعدت قراءة التقرير، نقبت في كل فصل من فصوله. على امتداد ذلك اليوم والذي يليه لم أكتب حرفا واحدا. كان تفكيري منصبا على

فكرة واحدة هي: لماذا لا يوجد في تقريري سوى الأشياء الصغيرة؟ أين هي الأشياء الكبيرة؟.

في اليوم الثالث عدت إلى كتاب فيدون مدققا على أمل أن أجد فيه الأشياء الكبيرة. لم أكن أعرف الأشياء الكبيرة لذلك كان بحثي لا فائدة منه. لا بد مما ليس منه بد يا مولاي؛ لذلك سألت الشيخ الجليل عن الأشياء الكبيرة

قال

- لكي تفهم لم انتحر كاتو؛ يقتضي أن تعود إلى فكرة الانتحار لا إلى كتاب فيدون.

لم أتفوه بكلمة، فقط حولت بصري عنه خجلا من نفسي؛ إذ كنت كذلك الأبله الذي قرأ كتب الفروسية حتى جف دماغه، وفقد عقله، وامتلأ دماغه بخيالات كل ما قرأه في الكتب؛ بدءا من السحر إلى المشاجرات والمعارك والتحديات والجروح. وقد دخل في تصوره أن كل تلك البدع المتوهمة التي قرأها حقيقة؛ حتى صار لا يرى في العالم حقيقة غيرها.

- أنت تفكر في (دونكيشوت). قال ذلك.

شيء لا يصدق! لقد لخص ما فكرت فيه.

عندما بدأ يتحدث عن (دونكيشوت) وهو يقرأ كتب المغامرات، ثم يرمي الكتاب؛ ليمسك بسيفه ليطعن الجدران، كان يراقب ردود فعلي التي كنت أخبؤها في مكان عميق من كياني في هيئة ضحك مكتوم، إلا أن ما أفعله لم يكن ليوقفه؛ قبل أن يروي لي كيف كان دونكيشوت يستشير الكتب لكي يبدو ما يفكر فيه ويتصوره مطابقا لما قرأه؛ حتى الطريق الذي يسلكه، وما إذا كان

هناك فارس أخذ معه حامل سلاح على حمار. ظلت أفكار الشيخ الجليل يا مولاي ترف عبر أفكاري. الحق أننا كنا نفكر الأفكار ذاتها؛ إذ يبدو مثلي يهتم بمثل هذه الروايات؛ لأنها تبين لي إلى أي حد يمكن العبث بالواقع.

إن السؤال الذي طفا في ذهني ما إن انتهى الشيخ الجليل من حكايات النبيل الشهير والشجاع الألمعي دون كيخوت دِ لا مانتشا هو: أيكون كاتو كدونكيشوت؟ قرأ كتابا، فجف عقله إلى حد أنه أراد أن يقلد سقراط وهو يتجرع السم رابط الجأش. ولما كان قائدا فقد آثر السيف.

هذا محتمل. المحتمل يا مولاي هو الممكن الذي قد يحدث، لاسيما أن أفلاطون روى اللحظات الأخيرة لسقراط بلغة لا يمكن أن نقول عنها إلا أنها لغة لا تقاوم؛ كلغة الرضيع التي يصفها أحد المتفلسفة بأنها: لغة آمرة، آلية، حركات مص غير ذي موضوع، حالات فمية مقطوعة الصلة بما تنتجه لذائذ فن الطبخ، ولذائذ اللغة.

كتب أحد مؤرخي الفلسفة: «لم تلبس الفلسفة على ما نعتقد إطلاقا مثل هذا الثوب الجميل اللامع الذي بدا في أسلوب أفلاطون قبله أو بعده» وكتب أحد محبيه: «يعرض الاتحاد النادر بين العبارة والمنطق، بحماسة الشعر مذوبة ببهاء وجلال عصره وتناسق وانسجام زمنه، ويحيلها إلى جدول رقراق من النغمات والتعابير الموسيقية التي تندفع قواها المقنعة بلا توقف.

لا يسعنا إذن أن نستغرب فيما لو فعل كاتو ذلك؛ أي أن يحاكي كتابا في خلود الروح يتضمن المزيج المسكر بين الفلسفة

والشعر والعلم والفن؛ إذ إن كاتو في الحقيقة كان قائدا نبيلا وشجاعا وألمعيا يكاد يفقد نبالته وألمعيته وقيادته بوقوعه في الأسر.

لا يستطيع كاتو أن يعود مثلما كان إلا بعد أن يقرأ حوارا في خلود الروح يعتبر أحد الكنوز الثمينة في العالم. كتاب فيدون يا مولاي هو واجب كاتو أكثر مما هو وجوده، وثق فيه، واستشاره كي يعرف ما يفعل بعد أن أُسر، وحينما انتحر فهو ينجز وعد كتاب بالخلود.

(٢٠)

قد يُفسِد يا مولاي هذا الفصلُ التقريرَ، لكن وجوده ضروري. إن القاعدة التي تعلمتها من عظمتكم هي: يجب ألا نسمح لما نعتقد أنه سيفسد أعمالنا أن يخيفنا، طالما هو مرتبط بجوهر ما نعمله. هناك أعمال لا تنتهي؛ وكل عمل يتضمن ما قد يفسده.

بناء على ذلك (كما يُكتب في لغة التقارير): إذا كان هناك فصل جوهري لكنه عُرض بطريقة تفسد التقرير؛ فيجب أن نبحث عن بديل عنه لا أن نتخلى عن فكرته. التقرير يا مولاي كالحياة شبكة من الأسباب والنتائج؛ ومن حسن الحظ أن كاتب التقارير يجد على الدوام أفضل مما استغنى عنه، مثلما هو هذا الفصل الذي بذلت جهدا كي يظهر في الحُلة التي تليق بعظمتكم.

لقد خطرت لي فكرة. في الواقع ليست فكرة محددة؛ إنما نوع من الإلهام. أحيانا نجد أنفسنا في حضرة فكرة لا نستطيع صياغتها. كيف يمكن للكلمات أن تنوجد؟ للغة أن تُبين؟ لم أتعلم بعد اللغة التي يمكن أن تفصح عن فكرتي؛ أو لأقل لم أكن أعرف كيف أترجمها. قد تظن يا مولاي أن هذه حالة بعيدة الاحتمال؛ لكن من مثل هذه الحالات تنشأ بلايا الناس.

قال لي الشيخ الجليل

- أحيانا نحتاج إلى ما يجعلنا نَحْتَشِد لكي نعبر.

ولأنني لم أفهم شرع يوضح

- ألم تسمع عن النبي الذي لم يدرك فكر الله قبل أن يطرب بموسيقى؟

ثم شرع يتلو بصوت رخيم

- «والآن فأتوني بعواد. فلما ضرب بالعود حلت عليه يد الرب».

إنها المرة الأولى التي يحدثني الشيخ الجليل عن الموسيقى.

تتعلق الفكرة بما يسميه أفلاطون «عالم المثل» أي حقيقة أخرى وراء عالم الحواس. هذه الحقيقة سماها أفلاطون «الأفكار». هناك توجد «المثل» الأبدية والثابتة؛ فوراء كل المنتحرين ككاتو وكليوباترا وهمنغواي وميشيما توجد فكرة «الانتحار».

لا أستطيع أن أتذكر الحوار الذي أوصلنا إلى هذا التجريد؛ الذي يتضمن العلاقة بين ما هو أزلي وغير فان من جهة، وما هو آني وزائل من جهة أخرى. أحد معلمي الفلسفة شرح لإحدى طالباته على هذا النحو: لا قيمة لبحث فلسفي عن فقاعة صابون؛ لسبب بسيط هو أننا لا نكاد نبدأ بدراستها حتى تنطفئ وتزول. الفيلسوف يحاول أن يكتشف ما هو أزلي وغير فان.

أن نفسر أكثر يا مولاي يعني أن نفهم أفضل. لأفرض أنك سألتني: ما الانتحار؟ سأحدثك عن كليوباترا التي سمحت لأفعى مدسوسة بين نهديها أن تلدغها حينما احتاجت لذلك، أو عن الروائي يوكيو ميشيما الذي لفت انتباه أصدقائه أنه حلما ينتهي من

كتابة رباعيته لن يبقى له سوى عمل واحد هو أن ينتحر، وهو ما حدث بالفعل، أو عن تقليد ياباني قديم يذهب فيه الشخص المهان إلى الشخص الذي أهانه فيقول له: أنت أهنتني لذلك جئت لكي أبقر بطني أمامك ثم يبقر بطنه؛ لعله يشعر بعدها براحة كبيرة ورضا عظيم كما لو أنه انتقم لنفسه فعلا.

ستقول لي يا مولاي: أنا لا أريد أن أعرف هذا؛ لأنني لم أسألك عن الأشخاص الذين انتحروا، ولا عن طريقة انتحارهم، أو الأدوات التي استخدموها في انتحارهم. إنني أسألك عن الانتحار، وستضيف: أنا لا أقصد بالانتحار أفعالا عديدة؛ إنما فعل واحد، والدليل أنني لم استخدم معك سوى كلمة واحدة هي كلمة (انتحار). ما الذي يعنيه هذا يا مولاي: أن الانتحار هو المفهوم العام لكل المنتحرين، وهو الانتحار الكلي.

سأعود هنا يا مولاي إلى فكرة أن المعرفة مفاهيم. يعني هذا أن معرفة الإدراك الحسي التي تقول: إن كل ما يبدو للفرد على أنه حقيقي يكون حقيقيا معرفة مزيفة؛ فقد يبدو لي يا مولاي أنني بعد هذا التقرير سأكون كبير مستشاريكم، وبدلا من هذا أجد نفسي في أحد سجونكم.

إن المعرفة يا مولاي يجب أن تأسس على العقل لا على العقيدة، ولا على الإيمان. قد يكون الاعتقاد صحيحا كل الصحة لكنه ليس معرفة؛ إنما هو ظن صادق. أن يعرف الإنسان يا مولاي ليس أن يعرف الشيء فحسب، إنما أيضا أن يعرف السبب الذي جعل الشيء على هذا النحو.

نحن عرفنا يا مولاي أن كاتو انتحر، وأنه كان يقرأ كتاب فيدون

الفلسفي قبل انتحاره؛ وقد حاولت أن أبحث أسباب انتحاره. أعني بفكرة الانتحار أن يكون كاتو قد تعمد، وأنه قصد أن يفعل ذلك. أيكون ما مولاي سبب انتحاره هو يقينه أن أسْرَه هو نقطة وصوله إلى كل ما تعلمه من خطط واستراتيجيات في فن الحرب؟ وأنه لم يبق له سوى عمل شيء واحد هو أن ينتحر؟ أيكون انتحر لعله يشعر بارتياح كبير ورضا عظيم؛ كما لو كان ينتقم من عظمتكم فعلا؟.

إنني يا مولاي أسترسل في الاحتمالات إلى حد لا يسعني معه إلا أن أخجل؛ فإذا أنا آخر هذا الفصل أمد لساني لنفسي أمام المرآة.

(٢١)

يشرح سقراط في محاورة (ثياتيوس) لأفلاطون أن باستطاعة الإنسان أن يكون حِرَفيا أي: نجارا أو حدادا أو إسكافيا من غير أن تكون لديه أي فكرة عن الحرفة التي يحترفها. هل تتذكر يا مولاي ذلك الشاب (ثياتيوس) الذي قال عنه (ثيودورس) إن أنفه الأفطس، وعينيه البارزتين يشبهان أنف وعيني سقراط؟ أي شاب ذلك الذي عثرت عليه! (يتعجب ثيودورس) ولو حدث وكان جميلا لخشيت كثيرا أن أتحدث عنه، حتى لا أبدو في أعين بعضهم وكأنني موله به.

كان (ثياتيوس) ذكيا، حاوره سقراط لكي يصل إلى فكرة هي: أن الفيلسوف يهتم بالمعرفة لذاتها، ولا يهتم ما إذا كان بالإمكان تطبيقها. أفلاطون مثله مثل سقراط قال بمتعة المعرفة الخالصة أي: المعرفة من أجل المعرفة حتى أتهم أنه يجهل ما يعرفه عامة الناس.

أتذكر أن الشيخ الجليل قال لي

- أن يجهل ما يعرفه عامة الناس سمة تخولني أن أطلق عليه نعت (أحمق)، وأن يعجز عن الأمور المتعلقة بالعمل تجعلني أسخر منه.

لقد فهمت يا مولاي من الكتب التي قرأتها أنه حينما يتعرض للشتم لا يجد شيئا شخصيا يقوله ردا على فظاظة خصومه؛ لأنه لا يعرف أي فضائح لأي شخص، وهو لا يهتم بها؛ ولهذا يضحكون منه بسبب وداعته... فإذا سمع فيلسوفنا عن ملاك للأرض يمتلكون عشرة آلاف آكر وأكثر، فإنه يعتبر هذا شيئا تافها، لأنه اعتاد على التفكير في الأرض كلها.

لكي يُفهم ما أقوله يا مولاي سأسرد بعضا من حكايات (طاليس) كما رواها (ديوجينيس اللائرتي). يروى أن امرأة عجوزا كانت تقود خطى (طاليس) عندما كان خارج منزله يتأمل حركة النجوم في أفلاكها، فوقع هذا في حفرة وأخذ يصرخ طابا العون من المرأة العجوز، فردت عليه هذه العجوز بقولها: أي طاليس، كف تزعم أن بوسعك أن تعرف كل شيء في السماء، وأنت عاجز عن رؤية ما هو عند قدميك.

ويحكي يا مولاي أن طاليس تنبأ على أساس معطيات فلكية بحصاد ثري ووفير للزيتون قبل أن ينتهي فصل الشتاء. عقد صفقة رخيصة مع معاصر الزيت؛ لأن أحدا لم يكن ينافسه. اقترب وقت حصاد الزيتون فكثرت الطلبات على معاصر الزيت، عندئذ بدأ طاليس يؤجر المعاصر التي كان قد استأجرها، وقد جمع من ذلك مبلغا لا بأس به.

ما الذي تعنيه هذه الحكايات؟ تعني أن الفيلسوف طاليس يمكن أن يكون ثريا من غير أي مشقة؛ لكنه لم يواصل مشاريعه. لم؟ لأن التفلسف فوق الأمور الدنيوية، جوهر الفلسفة يا مولاي يكمن في أن يسعى الفيلسوف إلى المثل الأعلى للمعرفة، إلى الحياة التي

تناسب الإنسان. نزعة أرستقراطية شكلت النواة الأولى للفلسفة، نزعة رفعت الفلسفة فوق الحياة العملية اليومية باهتماماتها وهمومها ومشاغلها الصغيرة.

أن تكون قائدا عسكريا يا مولاي يعني أن تنشغل بتفاصيل العمل اليومي، هَم الجيش ومشاغل الجنود الصغيرة، هم العدو وخططه الحربية العملية. هناك هامش صغير للمعرفة من أجل المعرفة في عمل قادة الجيوش. هكذا هي حياة كاتو قبل أن يقرأ كتاب فيدون.

بعد أن قرأ كاتو كتاب فيدون عرف متعة المعرفة الخالصة، لكنه فشل في يلائم بين معرفته العملية ومعرفته النظرية التي اكتسبها في التو. إن المعرفة يا مولاي تهدم ذاتها بذاتها؛ تهدم لكي تتخذ مظهرا متميزا. إنها عملية ونتيجة في آن. يُعد التغير الذاتي شكلا من أشكال الهدم لمدركات الإنسان القبلية. فكر الإنسان العلمي لا ينشأ إلا بهدم تفكيره غير العلمي.

كيف يمكن الانتقال يا مولاي من بنية من المفاهيم (في هذه الحالة يا مولاي مفاهيم كاتو) إلى بنية أخرى من المفاهيم (بنية المفاهيم الفلسفية) في الوقت الذي نعرف أن عملية الانتقال هذه تفترض استعمال الإنسان لبعض عملياته الذهنية. إن عبدكم المطيع والوضيع يعتقد أن كاتو فشل في أن يفعل ذلك فآثر الانتحار.

(٢٢)

أنا مطمئن اليوم يا مولاي؛ الاطمئنان الذي يتحدث عنه الشعراء قبل أن تجيء القصيدة. بدا العالم ذا معنى. لم يحدث قط أن شعرت في داخلي بتنوير كهذا التنوير. براءة طفل يشعر أنه سيقول معنى العالم في هذا التقرير. كل شيء في هذه اللحظة بدا أن له علاقة بكل شيء.

قلت لنفسي

- إنه منطق الحياة.

لكن الشيخ الجليل قال لي

- لا تفكر بالمنطق. إنه متهافت.

قلت

- أتقول هذا وأنت العالم بالفلسفة؟!

قال

- ما رأيك لو أثبت لك بالمنطق أن لك أعضاء أنثى؟

قلت

- أتستطيع؟!!

قال

- أستطيع. دعني أقول لك: ما فقدتَه فأنت لست حاصلا عليه.

قلت

- هذا صحيح

وما لم تفقده فأنتَ حاصل عليه.

قلت

- وهذا صحيح أيضا.

قال

- أنت لم تفقد أعضاء الأنثى.

قلت

- يبدو الحق معك.

قال

- ولأنك لم تفقد أعضاء أنثى فأنت حاصل عليها.

ثم شرع يحدثني عن فيلسوف أجبر خصمه على أن يُقر بأن له قرنين؛ لأن من لم يفقد شيئا فهو حاصل عليه، وهو لم يفقد قرنين. وسفه مبدأ عدم التناقض الذي ينص على أن المسألة الواحدة لا تحتمل الإيجاب والسلب في آن واحد؛ حيث انتزع منه اعترافا بأن الإنسان يعرف الشيء ولا يعرفه، وضرب له مثالا بـ(ألكترا) التي تعرف الشيء ولا تعرفه في آن واحد؛ لأنها حين تلتقي أخاها وهي به جاهلة، تعلم أن (أورست) أخوها، لكنها لا تعلم أن من التقته هو (أورست).

مهما يكن يا مولاي تفوق سقراط وأفلاطون الفكري، فإن تفوقهما وحده يعجز عن أن يتسيد بيسر وسهولة على أشخاص

آخرين ككاتو. لا بد لهما يا مولاي من حيل متفاوتة في الخسة والدناءة. أيكون المنطق يا مولاي هو الحيلة الخسيسة والدنيئة التي ضلل بها أفلاطون (كاتو) لكي ينتحر؟ هذا محتمل؛ فالحوار الذي يجري في كتاب (فيدون) لأفلاطون يقوم على مثل هذا الجدل. أليس غريبا يا مولاي أن ينتج عن مثل هذا السبب مثل هذه النتيجة؟!.

(٢٣)

غاب الشيخ الجليل بضعة أسابيع. قلت لنفسي: هذه هي نهاية الحكاية. لقد اختفى فجأة كما ظهر. من الآن فصاعد علي أن أعيش بدونه. فجأة طفا. كثيرا ما تقابلنا كلمة (فجأة) يا مولاي؛ لأن الحياة تحفل بما لا ننتظره.

إنني أتذكر اللحظة التي طفا فيها كما لو كانت فكرة، أو ذكرى، أو خاطرة. وأتذكره ككائن يهمس مسبقا بدمه ولحمه وشحمه، ولم يكن على لغتي سوى أن تسميه، أن تنهضه من وجوده المسبق. أو لأقل: طفا على شكل اختلال في رأسي كما لو أن أحدا ما دلف إليه. اختلال سابق على الكلمات، والإدراكات والحركات التي يفترض أن تعبر بدقة عما نشعر به.

عندما ترى يا مولاي شخصا غاب عنك، فإنك تلمس التغيير الذي طرأ عليه. في الحقيقة أن الشيخ الجليل بقي مثلما هو عليه، لكن شيئا ما تغير. ليس في جسده، ولا في ملامحه، إنما في شيء آخر، شيء ما يشبه رسما كان مرسوما بألوان غامقة ثم بَهُت.

- كيف حالك اليوم؟

سألني إذ يجب على أحدنا أن يبدأ الحديث بطريقة ما. أو

لأقل: كان بيننا منطقة محايدة أراد أن يشغلها بلطفه.

قلت

- ما زلت حيا.

قال

- لعلك تعرف أو لا تعرف. أنت تملك جميع صفات كتبة التقارير: الغرور، والخُبث، والطمع، والتلون، والأنانية.

لأول مرة أشعر أن هناك شيئا ما لا يطمئن في ألفته.

قلت

- كعادتك؛ لا تقصد المعنى. تورد الكلمة لكي تفرغها من مدلولها، وتحقنها بمدلول آخر.

قال

- دعني أكمل. لم آت اليوم؛ لكي نتناقش. إنما لكي نتوادع.

ولأنني صمت

قال

- لا عليك. لقد اخترع الإنسان الوداع؛ لأنه يعرف بحسه الخالد، رغم أنه زائل وبدون مبرر.

قلت

- كما لو أنك بورخيس وأنا لا أعرف.

قال

- أليس هو بورخيس الذي اعتقد أن جميع الأدباء و الكتاب لا يكتبون إلا الكتاب ذاته، و أن كل جيل يعيد كتابة ما سطرته الأجيال السابقة.

قلت

- هل سنلتقي؟

قال

- إذا كانت الأرواح لا تموت، فلا يعني الوداع شيئا. ذات يوم سنلتقي، وسنستأنف الحوار عن الروح والجسد والخلود. لسوف نتعجب أننا كنا يوما ما معا.

اختلطت الأفكار التي أردت أن أقولها، غير أن ما كنت أريد قوله هو هذا

- أرجو ألا يكون ذلك في تلك المقبرة.

وأنا أحكي اللحظات الأخيرة التي رأيته فيها؛ لا أظن يا مولاي أن علي أن أتعامل مع هذا الشيخ الجليل بسلسلة متتالية من الأسباب والنتائج، من العلة والمعلول؛ من المقدمات والنتائج، فما هو مهم هي دوافعه ذاتها. يحضر أنى شاء، ويذهب أنى أراد. يتحدث مع مَن شاء، ولو جعلت كل ما حدث يقود إلى حدث آخر لفقد هذا الشيخ الجليل غرابته.

لقد انسحب إلى مكان قال لي: إنه أفضل وأكثر سعادة. وبقيت لحظاته الأخيرة معي ملفوفة في سحابة من الضباب. لا أشك الآن في أنني لن أستطيع إخراجها منها. ثمة يا مولاي أشياء لا يخبر بها الأحياءُ الأحياءَ، ولدي الآن شك يتعمق كلما فكرت؛ هو أن سبب اختيار الشيخ الجليل الرحيل متصل بأمور لا يمكن أن يفضي بها إلى الآخرين.

قد تسأل يا مولاي: لماذا افترقتما بهذه الطريقة؟ لِمَ لم تفترقا بطريقة أخرى؟ سأجيب بما لا يخفى على عظمتكم: سأقول: لأنه حدث هكذا.

(٢٤)

لقد احتفظت بهذه الفكرة يا مولاي لكي أختم بها هذا التقرير. تتعلق الفكرة بالصورة التي ترتسم أمامي الآن: ليس ثمة سوى حقيقة واحدة هي انتحار كاتو. حقيقة ثابتة لا تتغير، وأنا كاتب التقرير حاولت أن أكتشفها على امتداد الصفحات السابقة؛ خطوة بعد خطوة، وجزءا بعد جزء. حاول كل فصل أن يتجاوز احتمال الخطأ في الفصل الذي قبله. ألا يكون التاريخ البشري يا مولاي كتقريري هذا؛ سلسلة من الأخطاء التي يتم تجاوزها؟.

لا أعرف. إن حالي الآن يشبه حال ذلك الفيلسوف الذي حلم أنه فراشة، فلما استيقظ لم يكن يعرف ما إذا كان إنسانا حلم أنه فراشة، أم أنه فراشة حلمت أنها إنسان. هذه الحال ليست بلا فائدة؛ فربما كنتُ الفراشة التي تقف على كتف الفيلسوف لترى أبعد مما رأى.

على كل حال؛ قد تكون بعض الفصول مملة. إنني أزعم أن الملل لم يُعط ما يستحقه من تقدير؛ أتذكر أن أحد الفلاسفة اعتبر الملل من أعظم القوى المحركة عبر التاريخ البشري. كل الكتب العظيمة تحتوي على أجزاء مملة بما فيها الكتب المقدسة، وكل

حياة العظماء احتوت على فترات غير مثيرة. إن التقرير الذي يتلألأ من أوله إلى آخره من المؤكد أنه لن يكون تقريرا جيدا.

ثم إني لم أشر إلى الكتب التي اعتمدت عليها. هذا التقرير يا مولاي أقرب إلى أن يكون اقتراحا لأسباب انتحار ماركوس بوركيس كاتو، وقراءته كتاب فيدون الفلسفي؛ وهو يحيل إلى كتب فلسفية وأدبية بحيث أن حدود التقرير لا تسمح لي بإيرادها. أأكون مخطئا أنني لا أود أن أفرض كتبا انتقيتها؛ لكي أتيح لعظمتك أن تكون حكمك الخاص؟. لم أود يا مولاي أن أقوم بأي إقصاء لكتب بذكري كتب أخرى، فما قمت به كان انتقاء لا إقصاء.

أخيرا فرغت من هذا التقرير. أتذكر يا مولاي أن أحدا ما قال: حينما أنتهي من الكتابة أشعر بفراغ كما لو أنني مارست الجنس. في الحقيقة؛لم يكن فراغا ما شعرت به؛ إنما شك فيما إذا كنت خارج أفكاري، خارج رأسي. بدوت لنفسي كما لو كنت مخلوقا من أفكار متشككة. أو لأقل كما لو كنت كائنا أنجبته الأفكار. طفت في ذهني فكرة أنني سأموت في يوم ما؛ قلت لنفسي كيف يمكن أن أشعر أنني حي لو لم أعرف أنني سأموت.

مثل هذه الحقيقة تحزنني، لكن لا حقيقة إلا هي؛ ومع ذلك لم أحملها على محمل الجد لأنني لم أتعود على أن أتأمل ما تعودت رؤيته في داخلي. أنت تعرف يا مولاي أن الإنسان لا يستطيع أحيانا أن يرغب في شيء من تلقاء نفسه؛ إنما يحتاج إلى طرف ثالث ليدله؛ الإنسان كدونكيشوت الذي دلته كتب الفروسية على موضوع رغبته.

لقد فات الوقت. انخرطتُ في لعبة كاتو وسقراط. انخرطت

من غير أن أدري، وقد حان الأوان لأن استيقظ على ماضي الضحية التي كنتُها. لقد حاولت أن أعيد تركيب الوقائع وأن أتخيل الأحداث. أن أغرق في الماضي لأطفو في الحاضر. تفككت حكاية كاتو كأنها ألوان يجزئها موشور، وفي كلٍ كنت أنا الشاهد، والمتفرج، والمشارك.

فيما أنا أتقدم، وبعد أن أنتهي من كل فصل تحرك حكايةُ ماركوس بوركيس كاتو كتيبةً من الانفعالات، كل انفعال يركب انفعالاكما لو كانت موجة تركب موجة، حتى أنني رحت أفكر: أريد أن أتغير، أن أصبح هو. وأمعنت التفكير: أريد أن أكون هو.

لقد مُت يا مولاي، لكن كما ترى لم أَزَل ؛ والدليل أنني أكتب تقريرا لك. أأكون في حلم وقد أسأتُ فهمه؟ محتمل!! لولا الحلم يا مولاي لما وَجَد الإنسان أي سبب لتقسيم العالم إلى قسمين: هذا العالم والعالم الآخر. ولما وجد أي مبرر لأن يفصل الروح عن الجسد.

حَلِم الإنسان البدائي، واكتشف في الحلم عالما حقيقيا ثانيا، وقد ترتب على هذا الحلم وعلى امتداد آلاف السنين أفكارٌ هي: انفصال الروح عن الجسد، ووجود العالم الآخر، والاعتقاد بوجود الأرواح والأشباح، والإيمان بالآلهة، وأن الميت يظل حيا لأنه يظهر للأحياء في أحلامهم.

يا لغباء الفلسفة. ويا لغباء مَن أنشأ نظريات فلسفية كبرى في الخلود. هل كانوا يعرفون أنهم أساؤوا فهم حلم رجل بدائي ومتوحش. يا لغباء سقراط وأفلاطون. هذان الغبيان الحاصلان على مقدارٍ عالٍ من الذكاء.